مجالس قرآنية

وقفات بيانية ودلالات تربوية

د. عويض بن حمود العطوي

مجالس قرآنية

وقفات بيانية ودلالات تربوية

د. عويض بن حمود العطوي

تدبر

مركز تدبر للدراسات والاستشارات

مجالس قرآنية

الطبعة الثانية
١٤٣٥هـ - ٢٠١٤
الرياض - الدائري الشرقي - مخرج ١٥
هاتف ٠١١٢٥٤٩٩٩٣ - تحويلة ٣٣٣
ناسوخ ٠١١٢٥٤٩٩٩٦
ص.ب.٩٣٤٠٤ الرمز: ١١٦٨٤
البريد الحاسوبي: tadabbor@tadabbor.com
www.tadabbor.com

. . . .

© عويض حمود العطوي، ١٤٣٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العطوي، عويض حمود
مجالس قرآنية، وقفات بيانية ودلالات تربوية، عويض حمود
العطوي - ط٢- الرياض ١٤٣٥
١٤٨ص؛ ١٧ × ٢٢سم
ردمك: ١-٤٤٣٤-٠١-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - مباحث عامة ٢- التربية الإسلامية / أ. العنوان
ديوي ٢٢٩ ١٤٣٥/٢٢٨٦

رقم الإيداع: ١٤٣٥/٢٢٨٦
ردمك: ١-٤٤٣٤-٠١-٦٠٣-٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مجالس قرآنية

المقدمة

الحمدُ لله رَبِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على المبعُوثِ رحمةً للعالمين، نبيّنا محمدٍ وعلى آلهِ وصحبه أجمعين، أمَّا بَعد:

ففي القرآن العظيم مساحات للتأمل والعظة، تتنوع فيها الدلالات، لكن تبقى اللغة هي الجسر الموصل إلى أسرار النظم القرآني، وهذا التأمل وتلك الأسرار يجب ألاَّ تتحول إلى ترفٍ لُغوي؛ دون عناية بالهداية، ووصل الناس بكتاب ربهم سبحانه؛ الذي هو عِزُّهم وذكرهم، وفتح الباب أمام الناس، وإيقافهم على بعض عجائب هذا الكتاب أمرٌ يجب ألا يُهمل؛ لأنَّ معرفتهم بذلك، وعرضه لهم بأسلوب علمي مقبول؛ سيُعَظِّم قدر هذا القرآن في نفوسهم، ممَّا يدفعهم للقيام بحقوقه؛ التي منها: تلاوتُه، وتعظيمُه، والعملُ به، وتدبُّره.

د. عويض بن حمود العطوي
وكيل جامعة تبوك للفروع
Dr.ahha1@gmail.com
www.alatwi.net
@DrAlatawi

مجالس قرآنية

المجلس الأول

تيسير الصوم

الحمدُ لله رَبِّ العالمينِ، والصلاةُ والسلامُ على المبعُوثِ رحمةً للعالمينِ، نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبه أجمعين، أمَّا بَعد:

يقول ربنا ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾(البقرة: ١٨٣).

لا يشكُ شاك أنَّ الصيامَ تكليف شاق، ولذا لما أوجب الله ﷻ علينا الصيام جاء ذلك على نظمٍ مختلف، كما في الآية الكريمة المذكورة، ولا عجب في ذلك إذا علمنا أن الصوم قد فُرض على هذه الأمة في السنة الثانية من الهجرة، أي قبل فرض الجهاد، ومعلومٌ ما في الجهاد من المشقة، وبذل النفس والمال، وكأنَّ التكليف بالصوم جاء ليجهز النفوس، ويربيها على تحمُّل ما هو أشق كالجهاد، وقد اشتملت آية الإيجاب المذكورة وما بعدها على ما يشعر بتيسير هذه الفريضة على الأمة، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى في شأن الصوم: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ﴾(البقرة: ١٥٨)، ولبيان هذا اليسر سنذكر هذه اللطائف وهذه الدلالات على النحو التالي:

أولًا: البدء بالنداء مع ذكر صفة الإيمان في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فيه فوق التنبيه شحذٌ للهمة لتلقي مشقة هذا الفرض، بكل صبرٍ واحتساب وقوة، مثل المناداة في قوله ﷺ: (يا أهلَ الشجرةِ) (يا أهلَ بيعة الرضوان)، ففي هذا من استنهاض الهمم، وتقوية العزائم مالا يخفى.

ثانيًا: مجيء الإيجاب بفعل الكتابة، مع البناء للمجهول (كُتب) في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾، دون (قُضي)، أو (حُكم به) مثلًا، لما في مادة الكتابة من دلالة الضبط المناسبة لطبيعة الصيام في وقته، وما يهدف إليه من ضبط السلوك القولي والفعلي، إضافة إلى سلامة كُتب من ثقل (قُضي) و(حُكم)، وما تشعر به من الإلزام العظيم.

ثالثًا: مجيء الفعل مبنيًا للمجهول ﴿كُتِبَ﴾ مع أنه معلومٌ فاعله، وهو الله ﷻ؛ وذلك لتخفيف مشقة التكليف، ولذلك ما قال الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا كَتب الله عليكم الصيام)، ولذلك ما في لفظ الجلالة (الله) من التعظيم والمهابة.

رابعًا: ذكر أننا مسبوقون في هذا التكليف، كما في قوله تعالى:﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾، وجاء ذلك على صورة التشبيه، وكل هذا من أجل التخفيف، لأنه من طبع الإنسان أنه إذا عَمِل عملًا شاركه فيه غيره سهل عليه، وإذا كُلِّفَ بعملٍ وحده صَعُبَ عليه، ويكون الأمر أكثر سهولة إذا كان الإنسان مسبوقًا بذلك التكليف، وهذا فيه أيضًا تحفيز وتنشيط، فإذا كان الذين من قبلكم قد صاموا، فكونوا مثلهم أو أحسن منهم في تلقي هذا التكليف.

خامسًا: ذكر النتيجة المرغوبة في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ فيه تهوينٌ للتكليف، وتشويق إليها، وذلك أنك إذا كلفت إنسانًا بعمل شاق، ولكنك قلت له: افعل كذا، أو كذا، لعلك تربح وتنجح، تجده عند ذلك يتشجع ويتقدم، والتقوى أمرٌ يسعى إليه كل مؤمن، لما لها من العواقب الحميدة في الدنيا والآخرة.

سادسًا: التعبير عنه بالأيام في أول ذكره، وتأخير ذكر الشهر المشعر بالطول، مما يسهل صيام هذا الشهر، فقد قال الله ﷻ: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾، إضافة إلى ما في جمع

الأيام على أفعال من كونه دالًا على القلة.

سابعًا: وصف الأيام بأنها معدودات ﴿ أَيَّامًا مَّعۡدُودَٰتٍ ﴾ يدل أيضًا على التخفيف والتسهيل لأن الشيء القليل يُعَد، والكثير يُحَد، أي: يُعرَّف، فكان هذا الوصف مشعرًا بأنها قليلة معدودة، وهذا مما يخفف على النفس كُلفة الصيام.

ثامنًا: التخفيف عن المريض والمسافر في الصيام، مع إيجاد فرصة موسعة للقضاء، كما في قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾، وهذا من التيسير والتسهيل.

تاسعا: في وصف أيام القضاء بـ(أُخَر) في قوله تعالى: ﴿ فَعِدَّةٌ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ تسهيل آخر، يتمثل في توسيع مدة القضاء لأنها من اختيار الإنسان.

ولو كان القضاء محدودًا بأيام، أو بأشهر، أو بزمن لا يتعداه؛ لشَق ذلك على النفس، يضاف إلى ذلك مجيء الإيجاب على التخيير، مع الترغيب في الصوم في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٌ طَعَامُ مِسۡكِينٍۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرًا فَهُوَ خَيۡرٌ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٌ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾(البقرة: ١٨٤)، كل ذلك يتناسب مع بداية التكليف، ونلحظ في بيان الفدية كيف كانت بالإفراد ﴿ طَعَامُ مِسۡكِينٍ ﴾، ولم تكن (مساكين) بالجمع، ثم نلحظ قوة الحضِّ والحث على الصوم بذكر الخيرية ﴿ خَيۡرٌ ﴾ ثلاث مرات، مع التعليق لحصول ذلك الخير بعلمهم ﴿ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ كأنّه قيل: لو كنتم تعلمون حجم الخير في الصيام لَصمتم.

عاشرًا: في قوله تعالى: ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ ﴾ نجد أن شهر القرآن ذُكر هنا بعد تأخره بعد ذكر الأيام، أي بعدما تهيأت النفوس لتلقي هذا التكليف الشاق، ومع هذا ذُكر معهم ما يخفف ثقل الزمن؛ المتمثل في الشهر، وهو نزول القرآن

موصوفًا بصفات الخير ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾، وبعد هذه التهيئة التي بينا صورها يأتي التكليف بوضوح وقوة في قوله تعالى: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾، فهنا ذكرٌ للشهر، وإيجابٌ صريحٌ واضح للأمر ﴿ فَلْيَصُمْهُ ﴾، إلاَّ مَنْ كان معذورًا فما زال التيسير ساريًا معه كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾، الأمر اختلف هنا، الآن فيه عزيمة للذي يشهدُ الشهر فعليه أن يصومه كما قال ﷻ: ﴿ فَلْيَصُمْهُ ﴾، أما من قبل فكان الأمر مختلفًا كما في اللمحات الماضية، ونلحظ هنا كلمة (مريض) أو على (سفر)، فما زالت على نفس الأمر، فلم يقل الله عز وَجلَّ: (مريضًا) أو (مسافرًا)، فما زال التيسير معه جاريًا كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ نجد الأمر هنا قد اختلف، فالعزيمة واضحة في قوله تعالى: ﴿ فَلْيَصُمْهُ ﴾، أما ما يخص المريض فما يزال الأمر ميسرًا ومسهلًا معه، وهذا دليلٌ على أنَّ العزيمة تعلقت بمن لم يكن مريضًا أو مسافرًا أو معذورًا، وأما مَنْ كان مريضًا أو مسافرًا أو معذورًا؛ فقد استمر التيسير والتسهيل معه، ومن هنا نلحظ كيف أن هذه التسهيلات التي أشرنا إليها جاءت ملخصة في قوله تعالى في ختام هذه الآيات: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾.

هذا ما تيسّر بيانه في هذه الآية العظيمة، أسألُ الله ﷻ أن يُبَصِّرَنا، وأن يوفقنا، وأن يجعلنا ممن يتأمل في هذا القرآن، ويستفيد من مواعظه، وقوارعه، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس الثاني

تكامل الزوجين

الحمدُ لله رَبِّ العالمينِ، والصلاةُ والسلامُ على المبعُوثِ رحمةً للعالمينِ، نبيّنا محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبه أجمعين، أمَّا بَعد:

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾(البقرة:١٨٧).

سنقف مع جزء من هذه الآية عدة وقفات، لنبين ما فيها من دلالات:

أولًا: جاءت هذه الآية مبدوءة بكلمة ﴿أُحِلَّ﴾، وهي مبنية للمجهول؛ بيانًا أن العناية منصرفة إلى فعل الحِّل ذاته، لأن الفاعل معروف، لأن هذا الفعل لا يكون لسواه، وهو الله ﷻ، وذِكر مادة الحل يدل على الشعور بالمنع والحرمة في القضية المذكورة، وأن الأمر يحتاج إلى حكمٍ من الله عز وجل، وقد ورد أن بعضهم كان إذا جاء إلى زوجته وقد نامت في الليل، لم يقربها، لأنه يظن أنها تحرم عليه إلى اليوم التالي، فشق عليه هذا الأمر فاحتمله بعضهم، وحصل من بعضهم تجاوز، فجاء بعضهم إلى النبي ﷺ فأخبروه، فقال الله ﷻ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾.

ثانيًا: قوله الله تعالى: ﴿ لَكُمْ ﴾ فيه عناية بشأنهم، وإيضاحٌ بتخصيصهم في هذا الأمر، وهذا يتناسب مع ما قيل عن منع السابقين قبلنا من قربان نسائهم في الليل.

ثالثًا: في التنصيص على الزمن ﴿ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ﴾ فيه بيان أن الحل مرتبط بذلك الزمن خصوصًا، وأن الأمر المذكور وهو قربان النساء محرمٌ في غير هذا الوقت مما يخص الصيام، وحتى يكون هذا الحكم مقتصرًا على شهر الصوم، أضيف الزمن إلى الصيام فقيل: ﴿ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ﴾.

رابعًا: في قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾ إيضاح للأمر المراد ذكر الحِلِّ فيه، وهو الرفث إلى النساء، وفي ذكر كلمة ﴿ ٱلرَّفَثُ ﴾ من الكناية اللطيفة عما يُستَحى من ذكره مالا يخفى، والرفث عند أكثر أهل العلم هو الجماع، وإتيان الرجل أهله، وكل ما يفضي إلى ذلك، والرفث كلمة جامعة لكل ما يريده الإنسان من زوجته، وهي كلمة جامعة–كما نرى–لكل هذه المعاني، والعجيب أننا نجد هذا الفعل (الرفث) مسموحًا به في ليْلِ رمضان ومنهيًا عنه في الحج، كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ﴾(البقرة: ١٩٧)، لاختلاف القصد في الفريضتين، فالمنع في رمضان يتعلق بالنهار، أمَّا في الحج فَلِقلّة مدته فيتعلق بالليل والنهار.

خامسًا: جاءت تعدية الرفث بـ﴿ فِى ﴾؛ مع أنه يعدّى في الأصل بـ(الباء)؛ فيقال: رفث بفلانة، ولا يعدّى بـ(إلى) فيقال: رفث إلى فلانة، كما في الآية هنا ﴿ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾، فدل ذلك على أن معنى الرفث هو كل ما يوصل الرجل إلى غايته التي يريدها من زوجته، وهذا يتناسب مع معنى تلك الكلمة التي أشرنا إليها بقولنا: وهي كلمة جامعة، وهذا بخلاف ما ورد في الحج من إطلاق، وذلك لأن (إلى) تدل على بلوغ الغاية، وقد يكون الأمر متعلقًا بالحل، فيكون المراد: أن الحِلَّ ممتد إلى نسائكم، لا يتجاوز إلى سواهن.

سادسًا: تحليل الرفث في هذا المقام قد يكون من باب الترفه بعد المنع، فلما كانوا ممنوعين من أزواجهم في النهار، سُمِح لهم ذلك في الليل، مكافأةً لهم وتمتعًا.

وقيل: المراد من ذكر التحليل هو إشعارهم بأنه أمرٌ محظور وقد أُحِلَّ في الليل، مع أن المرغوب فيه هو استمرارية الامتناع، تربيةً لقوةِ الإرادة، فيكون في ذكر الحِلِّ تسهيل على من ضَعُفَتْ عزيمته، والامتناع لمن قَوِيَتْ عزيمته.

سابعًا: قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ فيه كناية لطيفة أخرى عن الأمر ذاته، مع اختلافٍ في الأسلوب، حيث ظهر فيه هنا جانبُ المرأةِ أكثر من الرجل، بخلاف ما سبق مع الرفث، وهذا ظاهر في تكرير ضمير الإناث (هن) مرتين، في مبدأ الكناية ونهايتها، في مقابل ذكر ضمير الرجال (أنتم) مرة واحدة.

ثامنًا: في البدء بالمرأة مع كناية اللباس، إلماحٌ إلى أثر المرأة في تحصين زوجها، وستر معايبه، والإشعار بأن شأنها في جانب اللباس أظهر من الرجل.

تاسعًا: في تشبيه كلٍ من الزوجين للآخر باللباس، ما يدل على شدة حاجة كل منهما للآخر، وحذف أداة التشبيه من هذا التشبيه، فلم يقل: (هن كاللباس لكم، وأنتم كاللباس لهن)، لبيان شدة التطابق بين المشبّه والمشبه به، لدرجة أنه كالشيء الواحد.

عاشرًا: ذكر اللباس هنا خصوصًا يحمل دلالات عدة، تظهر من خلالها أوجه التشبيه العديدة، بين اللباس وأحد الزوجين مع الآخر، ويمكننا ذكر أهم تلك الدلالات على النحو التالي:

أن اللباس صورة من صور الجمال.

أنه مظهر من مظاهر الستر.

أنه أحد أسباب الحماية.

أنه شديد الالتصاق والقرب من الإنسان.

وبهذه الأوجه من الدلالات نعلم شدة الشبه في هذه المشابهة المذكورة في هذه الآية بين أحد الزوجين مع الآخر، وبين اللباس، ونعلم أيضًا حاجةَ كلٍ من الزوجين للآخر، وأنه يكون معه كما يكون اللباس مع صاحبه.

فهل تأمل أحدنا هذا الأمر، ونظر فيه، وخصوصًا أنه ورد في آيات تخص الصيام؟، لما في الصيام من تربية المهابة من الله ﷻ، وتربية المراقبة، ولعل هذا الأمر لابد أن يكون بين الزوجين، خصوصًا بما يتعلق بالعفة والستر والحماية، فإن هذا الأمر من الضروريات حتى تستمر الزوجية على أحسن حال.

أسأل الله عز وجل أن يوفقَنا لكل خير، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس الثالث

الإنفـــاق

الحمدُ لله رَبِّ العالمينِ، والصلاةُ والسلامُ على المبعُوثِ رحمةً للعالمينِ، نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبه أجمعين، أمَّا بَعد:

يقول تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(البقرة: ٢٤٥).

هذه الآية تتحدث عن قضية تتعلق بنوازع النفس نحو جمع المال، ومشقة إنفاقه، لأنه قسيم الروح كما يقال، فلنتأمل كيف جاء الحض على الإنفاق في هذه الآية من صور عدة:

أولًا: بدأت الآية بالسؤال بـ (مَنْ)، المعبر به عن العقلاء، والبدء بالسؤال فيه ميزة التنبيه من جهة، وطلب إجابة المسؤول من جهة أخرى، وليس المراد هنا طلب معلومة، بل المراد هو الحث والحض، وشحذُ الهمم، كقول القائل يستنفر الناس: مَنْ يَصُد عنا العدو، فليس هناك أحد محدد بل هو خطاب عام يستنهض كل الهمم، وهذا المعنى هو ما عناه طَرَفةُ بن العبد في قوله:

إذا القوم قالوا: مَنْ فتى خلت أنني عُـنـيـت فـلـم أكـسـل ولم أتبلد

يقول ابن القيم رحمه الله: «فصدر سبحانه الآية بألطف أنواع الخطاب وهو الاستفهام المتضمن معنى الطلب، وهو أبلغ في الطلب من صيغة الأمر، والمعنى هل أحد يبذل هذا القرض»، وهذا ولا شك ألطف من لو قيل: (اقرضوا)، لخلوصه من ثقل الطلب.

ثانيًا: في مجيء (ذا) بعد أداة الاستفهام (مَنْ) مع عدم وجود مشار إليه محدد، اهتمام بالفعل الواقع في خبر الطلب، وهو هنا الإقراض، ومعرفة فاعله (مَنْ) يكون لدرجة أنه يراد له أن يُبْرَزَ حتى يكون ماثلًا للعيان يمكن أن يشار إليه، وفي ذكر اسم الإشارة على هذا المعنى عناية بالإشادة بالمنفق، حتى لكأن هذا المرتقى العظيم لا يصله إلا مَنْ يشار إليه بالبنان، فهل أنت من أولئك أيها المؤمن؟

ثالثًا: تعريف المنفق باسم الإشارة أولًا، ثم بالموصول ثانيًا: (ذا الذي)، فيه إشعار بالتميز من جهة، وعراقته في هذا العمل الجليل من جهة أخرى، حتى لكأن الوصف المميز له هو إنفاقه في سبيل الله، فهو عندما يُراد أن يعرف ويوصف يقال عنه (الذي يقرض الله قرضًا حسنًا).

رابعًا: التعبير بمادة الإقراض في قوله تعالى: (يقرض الله)، فيها ملمح لطيف، لو تأمله المؤمن لبسط يده بالإنفاق، وذلك لما تحمل من دلالات الضمان والخير، يقول ابن القيم رحمه الله: «وسمى الله ذلك الإنفاق قرضًا حسنًا، حثًا للنفوس وبعثًا لها على البذل؛ لأن الباذل متى علم أن عين ماله يعود إليه ولابد طوعت له نفسه بذله، وسهل عليه إخراجه».

والملحوظ هنا ما يلقيه لفظ (القرض) في روع الإنسان من ضمان التعويض، ولا يكاد يكون هناك شيء في مقام التعويض والرد كالقرض، إضافة إلى ما فيه من فضيلة العطاء والإنفاق وأحيانًا الثناء والشكر، فكل ذلك يحصل للمقرض مع عودة ماله كله إليه خصوصًا إذا كان القرض على مليء قادر.

ومجيء (الإقراض) بالفعل (يقرض)؛ للإشعار بطلب تجدد ذلك، وأن الممدوح في ذلك هو إحداث هذا الفعل الطيب آنًا بعد آن.

خامسًا: مجيء لفظ الجلالة (الله) في قوله جلت قدرته (يقرض الله)، فيه غاية الطمأنة للمنفق، وضمانُ التعويض له، يقول ابن القيم: «فإن علم (المقرض) أن المستقرض مليء وَفِيٌّ محسن كان أبلغ في طيب قلبه، وسماحة نفسه (بالإنفاق)»، ولك أن تتفكر أيها المؤمن بربه في حالك وأنت تتعامل مع الله، الذي بيده كل شيء، وهو المتفضل عليك أولًا وآخرًا ومع هذا يطلب منك الإنفاق، ويضمنه له على صورة القرض، فكيف بعد هذا تقبض يدك، ألا تستحي من نفسك، وليس المال مالك، بل هو مال الله، فسبحانه ما أكرمه، وما أجل نعمه علينا.

سادسًا: في ذكر المفعول المطلق (قرضًا)، تأكيد لمادة الفعل المطلوبة (يقرض)، فهو ليس بعطية ولا هبة لا تعود، بل هو قرض، فكان في ذكر المفعول المطلق تكرارًا لمادة الإقراض، مما يحمل تأكيدًا لها، لما فيها كما رأينا من شدة الضمان، وتحقق حصول التعويض.

سابعًا: وصفُ القرض بأنه (حسن) في قوله (قرضًا حسنًا)، قيد مهم في نوع الإقراض المطلوب، المقبول عند الله، فليس كل قرض مقبولًا، كما أنه ليس كل إنفاق مقبولًا، يقول ابن القيم «وحيث جاء هذا القرض في القرآن قُيد بكونه (حسنًا) وذلك يجمع أمورًا ثلاثة: أحدها أن يكون من طيب ماله لا من رديئه وخبيثه، الثاني: أن يخرجه طيبةً به نفسه ثابتة عند بذله ابتغاء مرضاة الله، الثالث: ألا يمن به ولا يؤذي، فالأول يتعلق بالمال، والثاني يتعلق بالمنفق بيه وبين الله، والثالث: بينه وبين الآخذ».

ثامنًا: قوله تعالى: (فيضاعفه له) ربط الجملة بالفاء دليل على حصول المضاعفة المحببة للإنسان بسبب الإنفاق كما أن فيها إشعار بسرعة حصول الخلف برجوع المال مع المضاعفة، وفي هذا إزالة لكل عوائق الإنفاق عند الإنسان، إذ عاد إليه ماله، وتضاعف

أضعافًا كثيرة ويؤيد جانب الكثرة هذه القراءة الأخرى (فيضعِّفه) بالتشديد، لهذا يقول ابن القيم في هذا المعنى: «فإن علم (أي المقرض) أن المستقرض يتجر له بها أقرضه وينميه له ويثمره حتى يصير أضعاف ما بذله كان بالقرض أسمح وأسمح».

تاسعًا: في التنصيص على المعنى بالمضاعفة بذكر حروف الجر اللام في قوله تعالى (له)، مزيد ضمان وطمأنة، إذ في ذلك إشعار بأن هذه الأضعاف لم تكن للمستقرض بل هي للمقرض، ومردها إليه، كما تشير إلى ذلك دلالة (اللام) التي هي في أصلها للملك والحيازة والقصر، فإذا أدرك المنفق أن المضاعف هو الله، وأنه هو مخصوص بذلك فكيف سيكون نشاطه للنفقة وأنسه بها؟

عاشرًا: (أضعافًا كثيرة)، وهنا ذكر آخر لما تميل إليه نفس صاحب المال بطريق المفعول المطلق (أضعافًا) والمراد هو تأكيد مادة (المضاعفة) المحببة إلى الإنسان في مقابل تأكيد مادة الإقراض (يقرض قرضًا) المشعرة بالضمان فإذا اجتمع للإنسان ضمان مع مضاعفة وعطاء فلن يحجم عن هذا الخير إلا محروم.

ومما يزيد النفس إقبالًا أن جاءت كلمة (أضعافًا) مجموعة دون أن تكون مفردة (ضِعفًا)؛ ليكون العطاء أكثر، بينما جاءت مادة الإقراض مفردة (قرضًا)، ولم تكن (قروضًا)، ليكون الإنفاق أسهل على النفس فما أعظم عطاء الله (قرض) واحد، يجازى به صاحبه (أضعافًا كثيرة) فأين المنفقون وأرباب المال، ألا يثقون بوعود الله ؟.

حادي عشر: في وصف الأضعاف بالكثرة في قوله تعالى: (أضعافًا كثيرة) تهييج لحب النفس للمزيد من التعويض مما يحدوه لمزيد من الإنفاق، ففوق أن تكرار كلمة (أضعافًا)، وكونها مجموعة، تأتي الصفة (كثيرة) لتؤكد معنى الكثرة المحبوبة عند

صاحب المال، وفي هذا عناية كبيرة بتحفيز المنفق بذكر ما يحب وهو أسلوب يحسن إتباعه مع الناس فيما يتعلقون به كالمال.

ثاني عشر: في قوله تعالى:﴿ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ ﴾ تكرير للفظ الجلالة؛ لزيادة ضمان العطاء، فإن ذلك يقتضي أنه إذا كان هو الذي يعطي ويمنع، فإن الأمر كله إليه، فإذا كان سبحانه هو الضامن، فمم يخاف المنفق؟، مع ما في تقديم لفظ الجلالة وهو الفاعل المعنوي من التأكيد أو الحصر، أي لا قابض ولا باسط سواه.

ثالث عشر: مجيء القبض والبسط بالفعل (يقبض ويبسط)، فيه إشعار بتجدد ذلك، وهذا يتناسب مع عطاء الله للمخلوقين، وكثرة احتياجهم وتنوعه.

رابع عشر: تقديم القبض على البسط (يقبض ويبسط) مع أن الحديث عن الإنفاق فيه تسلية للفقراء، وقليلي المال، وفي هذا شحذ لهممهم للإنفاق ولو من القليل ليتحول فقرهم إلى غنى، وضيقُ حياتهم إلى سعة، فكأنه قيل إن البسط والعطاء يعقب القبض، فيكون في هذا بشارة بتغير أوضاع من كان في حيز الحالة الأولى وهي (القبض) إلى الحالة الثانية وهي البسط، وهذا التوجيه يتناسب مع السياق الوارد في مدح الإنفاق والحث عليه، وفيه ملمح آخر وهو: الوعد بالتوسعة لمن أنفق، والوعيد بالتقييد والمنع لمن بخل ومنع.

خامس عشر:﴿ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾: وهنا حث آخر على الإنفاق بذكر مرد الإنسان، وأنه إلى الله الذي أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، كما فيه بيان أن ما أنفقه سيجده أمامه إذا رُدّ إلى ربه، وهذا لون من النفع تنشط مع ذكره النفوس لفعل الخير، فهو يعلم أن ما أنفقه مهما كثر أو قل فهو عند الله، وأنه مردود إليه، ولهذا جاء تقديم الجار والمجرور (إليه) عناية بأمر المردّ والمرجع لما في ذلك من كمال الضمان وقوته، وبهذا اكتمل الضمان في الدنيا والآخرة بكل أدواته ودلائله.

سادس عشر: جاء في آية أخرى في ختامها (وله أجر كريم) وهذا أيضًا من محفزات الآخرة، وهو مما يكنز لصاحبه من الخير وهذا ما توحي به كلمة (أجر) وفي وصفها بالكرم (كريم) ما يزيد رغبة المنفق، وما ألطف مناسبة هذا الوصف لمعنى الآية ومضمونها، حيث قوبل المطلوب وهو (القرض الحسن)، بالعطاء وهو (الأجر الكريم). يقول ابن القيم: «فإن علم (المقرض) أنه مع ذلك كله يزيده سبحانه من فضله وعطائه أجرًا آخر من غير جنس القرض، وأن ذلك الأجر حظ عظيم وعطاء كريم، فإنه لا يتخلف عن قرضه إلا لآفة في نفسه من البخل والشح أو عدم الثقة بالضمان، وذلك من ضعف إيمانه، ولهذا كانت الصدقة برهانًا لصاحبها»، وهذا ما فعله الصحابة ﭬ من الإنفاق والعطاء، فقد قيل أن أبا الدحداح لما نزلت هذه الآية في سورة البقرة، قال لرسول الله ﷺ: «أو إن الله يريد منا القرض، قال نعم يا أبا الدحداح، قال أرني يدك فناوله يده، فقال: فإني أقرضت الله حائطًا فيه ستمائة نخلة، فقال ﷺ: «كم من غدق رداح لأبي الدحداح في الجنة».

وفي هذا أعظم دعوة لأهل الثراء والمال، ليتعاملوا مع ربهم وليعبدوا خالقهم بما أعطاهم وأغدق عليهم، فما أظن أحدًا سيبخل بعد كل هذه الضمانات إلا لسوء في جبلته وطبعه من البخل والشح أو لضعف في دينه ويقينه، وكل منا حسيب نفسه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس الرابع

المحــاجّة

الحمدُ لله رَبِّ العالمينِ، والصلاةُ والسلامُ على المبعُوثِ رحمةً للعالمينِ، نبيّنا محمدٍ وعلى آلهِ وصحبه أجمعين، أمَّا بَعد:

هذه الآيات التي لدينا الآن تتحدث عن محاجة إبراهيم عليه السلام النمرود، في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(البقرة: ٢٥٨).

هذا الخطاب الذي أمامنا هو خطاب دعوة، وخطاب ردِّ شُبهةٍ، يحتاج إلى نمطٍ خاصٍ من أساليبِ القول، كما يحتاج إلى حُجة قوية، وكلمةٍ معبرّة، لأنَّه مذكور في سياق المحاجّة كما قال ﷻ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾، فذَكر المحاجة؛ وجعلها علمًا لهذا المُجادل، فعرَّفَهُ بها فقال: ﴿إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ ﴾، لما في المُحاجة المذكورة من الغرابة؛ وشدة الخروج عن المألوف، ولنا مع هذه المحاجة هذه الوقفات التي نبيّن فيها بعضَ مدلولِ هذه الآيات الكريمات.

أولًا: بدأت الآية الكريمة بهذا الاستفهام التعجبي، الموجه إلى نبينا محمد ﷺ، واشتمل ذلك على ذكر الرؤية، فقال سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾، دون العلم؛ بأن يقال:

ألم تعلم؟، للإشعار بأنَّه حدثٌ يستحق أنْ يُعايَن بالعين، كما أنَّه واضحٌ جليّ، كأنما يُنتقل فيه من نقلِ الخبر إلى صورة المعاينة والرؤية، ومع أنَّ المراد هنا هو الكلام والحجة، وهما يسمعان ولا يُريان، فلم يرد: ألم تسمع، بل قال ﷺ: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾؛ لما في استحضار الحدث من علاقة بنوعية هذا القول المذكور، فهذا جبارٌ ظالمٌ يحاور إبراهيم عليه السلام في ذات الله سبحانه، هذا المشهد لابد من استحضاره لحظة عرض الخطاب، لذا جاءت ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾، دون ألم تعلم، أو ألم تسمع، وفي عرض القرآن لهذه المجادلة -رغم عدم منطقية الحوار فيها- دليلٌ على ضرورة فتح باب الحوار، وسماع وجهة النظر الأخرى، ثم بعد ذلك يقرر المحاور الاستمرار مع خصمه من عدمه.

ثانيًا: جاء النص هنا على موضوع الحوار والخطاب فقال ﷺ: ﴿ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾، أي: في ربِّ إبراهيم عليه السلام، وفي ذلك إيماءٌ إلى ضرورة توحيد أرضية الحوار قبل البدء في الحوار، وفي التعرض لعنوان الربوبية -خصوصًا في هذا المقام- تشريفٌ لإبراهيم عليه السلام، وإيذانٌ من أول الأمر بنصر الله له، لأنَّ التربية نوع من الولاية.

ثالثًا: قال سبحانه: ﴿ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾، هذا تعليلٌ لإقدام هذا المجرم على هذا الجُرم العظيم، أي أنَّه لأَجْلِ إنعام الله عز وجل عليه بالمُلكِ والسلطان، وكونه أولَ مَنْ ملك الأرض؛ ووضع التاج على رأسه - كما قيل -فإنَّه تجرأ على هذه المحاجة الكفرية.

وفي النص على هذه العلة إشعارٌ بقلة اكتراثه بنعمة الله، إذ هو الذي أعطاه

ذلك المُلك؛ وتلك النعمة، ومع ذلك جحدها، بل تجاوز الحد، وجادل في ذات الله.

رابعًا: بعد هذه التهيئة لخطاب إبراهيم عليه السلام، ومحاجته لهذا الطاغية، جاء كلام إبراهيم عليه السلام، ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾، وهكذا بدأ إبراهيم عليه السلام بالحوار، وهذا يُشعر الخصم بقوته عليه السلام في حجته، فليس هو بالمُحجم عن الكلام؛ بل هو مقدمٍ لإيمانه بما يقول.

خامسًا: قدّم إبراهيم عليه السلام في كلامه كلمة ﴿رَبِّيَ﴾، وهي الفاعل المعنوي للفعل ﴿يُحۡيِۦ﴾، فالمُحيي على الحقيقة هو الله عز وجل، وذلك للرد على هذا النمرود الذي ادعّى حقًا لله، وجعله حقًا لنفسه، وهو مخلوقٌ ضعيف، فدلَّ هذا التقديم في كلام إبراهيم عليه السلام على الحصر، فكأنه قال عليه الصلاة والسلام: ربي وحده الذي يحيي ويميت، لا أنت ولا غيرك.

وفي ذكر الربوبية هنا ملمحٌ من ملامح الاعتراف بقَدْرِ الخالق ﷻ، وأنه المُدبّر، وأنه المُعطي، ليستشعر هذا النمرود أنه ضعيف لم يخلق نفسه، بل خلقه العليم الخبير، وفي هذا استنهاض لمكامن الفطرة لديه؛ لعله يرعوي عن غيّه، كما نلحظ من ذكر الربّ دون أسماء الله الحسنى الأخرى؛ أنه عليه السلام مالَ إلى جانب اللين أول الأمر معه؛ علةّ أن يستدرجه إلى جادة الصواب، إذ هو يريد تذكيره بالمنعم عليه، وهو الربُّ ﷻ.

سادسًا: قال إبراهيم عليه السلام في حديثه معه: ﴿ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ فعرَّف الخالق ﷻ بالموصول ﴿ٱلَّذِي﴾، وجعل صلة الموصول الفعلين ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾، وكأنه يشير بهذا عليه السلام إلى أنه سبحانه هو المتفرد بهذين الوصفين، فهما لا يليقان إلا به سبحانه، وإنما ذكر هذين الوصفين خصوصًا لأنهما من القضايا التي تظهر فيها قدرة الخالق؛ وعجزُ المخلوق، كما أن هذا النمرود قد ادعّى ذلك، وعرف إبراهيم عليه السلام عنه ذلك مسبقًا، وفي تقديم الإحياء على الإماتة ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾، إما لأنها الحالة الأعظم دلالة على القدرة، وإما لأنه أراد من أول الأمر الرد على مُنكر البعث، ومنهم هذا الملك؛ لأنَّ مَنْ يُحْيِي أول مرة؛ فهو قادرٌ على الإعادة ولا شك.

سابعًا: ردَّ النمرود على كلام إبراهيم عليه السلام بقول: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾، فجاء بترتيب الكلمات ذاتها، فبدأ بالفاعل المعنوي (أنا)، ثم ذكر الإحياء والإماتة، لكنه لم يعرّف نفسه بالموصول، فلم يقل: أنا الذي أحيي وأميت، وذلك لأن هذا لا يكون (أي التعريف بالموصول) إلا لمن عُرف بهذا، واشتُهر بالصفة المذكورة بعد الموصول؛ حتى أصبحت كالعلمِ له، وهذا لا يكون إلا لله ﷻ فيما يخص الإحياء والإماتة، وكل ما فَعله هذا النمرود هو الإدعاء، ولم يكن له من رصيد الواقع شيء، بل إنَّه قد بنى كل ذلك على مغالطة سخيفة ينكرها كل عاقل، إذ زعَم أنه يعمد إلى من حَكَم عليه بالموت فيعفو عنه، وإلى بريء فيقتله، وفي تقديم الفاعل المعنوي (أنا) إشعارٌ بإرادته التوكيد على قدرته على المنافسة فيما أورده إبراهيم عليه السلام، وليس المقصود هنا هو

الحصر، بل التقوية والتوكيد؛ لأنَّه أراد إثبات الشراكة، أمَّا أنَّه الوحيد الذي يحيي ويميت، فهذا مالا يستطيع إدعاءه ولو فعل، لأنَّه هو في ذاته مخلوقٌ ضعيف.

ثامنًا: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِيمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾(البقرة: ٢٥٨)، نلحظ هنا أن إبراهيم عليه السلام قد عَدل في محاورته لهذا الطاغية؛ عن المُضي في نقض حجته التي ذكرها، لأن اعتراض ذلك الطاغية في هذه المرة لم يكن مما تقبله العقول، ومصدره إنما هو المكابرة والمعاندة، وليس هناك فائدةٌ في الاستمرار معه، ومَنْ هذا شأنه فلا يَحسُن الاستمرار معه في جدالٍ عقيم، لأنَّه لا يقيم لقوانين العقل ولا المنطق وزنًا، ومَنْ كان هذا حاله؛ فلا فائدةَ في جداله، بل الأحسن إفحامه بحجة دامغة لا يستطيع ردها، ولعل هذا ما جعل إبراهيم عليه السلام يختصر هذه المحاورة، فلم يَطْرق فيها جوانب متعددة، بل رأى أنه من الأحسن هنا أن يذكر حجةً تُسكت المجادل، فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾(البقرة: ٢٥٨)، وهنا انتقال مما يمكن لهذا الطاغية أن يجادل فيه، ولو بفهمٍ سقيم، وتأويلٍ مردود، إلى مالا قدرة له على ادعائه بأي صورة من الصور، لبُعد هذه الكواكب عنه، وعدم قدرته على التصرف فيها، أو التأثير فيها، أو حتى الإيهام بذلك كما فعل أولًا.

تاسعًا: جاء لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ دون اسم الربّ كما مر سابقًا؛ لأنَّ الموقف هنا هو موقف رد على إدعاء سافر، لم يَقْدُر صاحبه الخالقَ ﷻ حق قدره، كما أن الموقفَ موقفُ إظهارٍ لقدرة الله، وهنا يكون اسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ أعظم دلالةً،

وأكثر تربيةً للمهابة والإعظام، أما في أول المحاجة، فلم يكن هناك ذكر لكلام هذا النمرود؛ لهذا كان عليه السلام ليِّنًا معه، لعله أنْ يثوب إلى رشده.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ﴾، أخبر عليه السلام في هذه الآية، وفي هذه الجملة بخبرٍ لا مجال له في دفعه، وهو أن الخالق ﷻ يأتي بالشمس من جهة المشرق، فإن استطعت أيها المعاند أنْ تأتِ بها من جهة المغرب فافعل، وكان هذا الأمر بالنسبة له كالمفاجأة؛ لأن الموقف يتطلب منه أن يُحدث ذلك في الحال، ولمّا لم يكن له قدرة؛ لضعفه وعجزه، سكت، وفوجئ، وأُسقط في يده، وجاء ما يصوّر ذلك بوضوح في قوله تعالى: ﴿فَبُهِتَ﴾، وذكر الموصول في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ وجعل الكفر صفة له ﴿ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ للإشعار بعلة هذه النتيجة؛ وهي أنه كافرٌ، حائدٌ عن الحق، لذا جاء ختام هذا الحوار ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وفي ذلك بيان أن جحد الحق، والكفر بالله من الظلم العظيم؛ لأنه صرفٌ لحق الله عز وجل إلى غيره، وهذا هو الظلم، لذا قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(لقمان:١٣).

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس الخامس

﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ ﴾

الحمدُ لله رَبِّ العالمينِ، والصلاةُ والسلامُ على المبعُوثِ رحمةً للعالمينِ، نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبه أجمعين، أمَّا بَعد:

ستكون وقفتنا اليوم بمشيئة الله تعالى عن سياحة تفكرية تأملية، في آية عظيمة، تتحدث عن فئة عظيمة القدر، نسأل الله عز وجل أن يرفع قدرهم، وأن يعليَ من شأنهم، إنهم أهل الاحتساب، الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾(عمران:١٠٤)، وقد جمعت هذه الآية العظيمة أمورًا عدة، لعل من أهمها:

- حكم هذه الشعيرة.
- المخاطب والمأمور بها.
- مواصفات القائمين بها.
- وظائف ومهمات أهلها.
- خطوات إقامة هذه الشعيرة.
- الثناء على القائمين بها.
- علاقة الدعوة بهذه الشعيرة.

ولعل هذه الأمور التي أشرت إليها ستأتي من هذا التحليل الدلالي لألفاظ وتراكيب هذه الآية الكريمة، في محاولة منا لبيان عظم مدلول هذه الآية، على مكانة هذه الشعيرة العظيمة، وقد نذكر بعض هذه العناصر، وقد ندمج بعضها مع بعض، وسنبدأ من خلال هذه القضايا التي سأعرضها في معرض بيان ما تحتويه هذه الآية من دلالات، وإشارات.

أولًا: الملحوظ في هذه الآية، أنها جاءت بين آيتين تدلان على ضرورة الاتفاق ونبذ الافتراق، فالآية السابقة تدعو للاعتصام والأخوة، قال الله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾(آل عمران: ١٠٣)، والآية التي تليها، تنهى عن مشابهة أهل الفرقة والخلاف، وهي قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾(آل عمران: ١٠٥) وهذا مؤشرٌ واضح إلى أنَّ من أعظم المؤثرات في إقامة هذه الشعيرة العظيمة هو اجتماع الكلمة، ونبذ الاختلاف، كما أنَّ هذه الشعيرة هي من أعظم أسباب تمكين هذا الدين، وقطع بوادر التفرق وذهاب الريح، فكأنَّ التأثير هنا متبادل، لكن لكل مؤثر وجهة معينة في التأثير والتأثر.

ثانيًا: قوله تعالى:﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ ﴾، نلحظ فيها كيف جاء إيجاب هذه الشعيرة بهذا الأسلوب، بأسلوب المضارع المسبوق بلام الأمر، في قوله تعالى:﴿ وَلْتَكُن ﴾ بسكون اللام، وهذه اللام أفادت الأمر، وهو موجه من أعلى -وهو الله ﷻ- إلى الأدنى -وهم العباد- وهذا يقتضي الوجوب وضرورة العمل به، إلى أن يأتي ما يصرفه عن هذا الوجوب أو يخصصه، والتعبير بفعل الكون ﴿ وَلْتَكُن ﴾ يوحي بالإيجاد لشيء لم يكن موجودًا لحظة الخطاب، إذ المعنى على كان التامة، ولتوجد منكم أمة يدعون، والفعل المضارع يوحي بالتجدد والاستمرار في هذا العمل، حتى لو حصل فيه انقطاع، بخلاف الأمر لو قيل مثلًا: كونوا أمة داعية إلى الخير.

ثالثًا: تحديد المخاطب بهذا الأمر، بقوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ ﴾، للإشعار بمزية هذه الأمة وشرفها، حيث اختصها الله ﷻ واختارها، فكانت الفئة المصطفاة بهذه الشعيرة العظيمة، وذلك في قوله تعالى:﴿ مِّنكُمْ ﴾، أي: أنتم أيها المخاطبون، ويفهم هذا المعنى من دلالة (مِنْ) الابتدائية، فكأنَّ منطلق ومبدأ هذه الفئة هو أنتم أيها المؤمنون المخاطبون،

وهذا في نظري أولى من القول بالتبعيض، لأنَّ الابتداء هو معنى من الأصل، ولأنَّ عدم لزوم الكل، وفرضية الكفاية ليس بالضرورة أنْ يفهم من قوله تعالى: ﴿مِّنكُمْ﴾، بل يمكن أن تدل عليه كلمة ﴿أُمَّةٌ﴾، أي جماعة، تعم وتقصد، فليس هذا الأمر مطلوب من الجميع، على درجة واحدة وفي وقت واحد -وإن كان توجيه الخطاب من المذكور هو لكل الأمة- ثم أسندت الدعوة إلى البعض، أي: إلى الأمة المختارة، وهذا فيه إشعار بضرورة اهتمام المؤمنين جميعًا بهذه الشعيرة، وعدم التخلي عنها بحجة قيام جهات معينة بها، لأن التوجيه في أصله كان بالعموم، ثم خصت الأمة المختارة على سبيل التكريم، أو على سبيل التحديد، كما يتضح من هذا زيادة على ما ذكر عظم شأن هذه الفئة المختارة لهذه المهمة المحتسبة لها، وعظم فضلها علينا أجمعين، إذ بسببها يمكن أن يرفع الإثم عنا، إذًا: وجب على الجميع مساندتهم والوقوف معهم، لا مضايقتهم وإضعاف شأنهم.

رابعًا: قوله تعالى: ﴿أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾، في ظني أنَّ التعبير بـ(أُمَّة) هنا، له دلالته الخاصة، فما كان القول (وليكن منكم فريق، أو جماعة، أو فئة، أو غير ذلك)، لأنَّ الأمة تدل على الكثرة من جهة، والتنوع من جهة، وعلى كون أفرادها يؤم ويقصد من جهة ثانية، وهذه المعاني المستقاة من جملة أقوال المفسرين وأهل اللغة، تشير إلى أنَّ هناك مواصفات معينة في الذين يتولون هذه المهمة، ويكونون معنيين بها عناية مباشرة، ومن ذلك مثلًا: الكثرة، فلا يصلح أن يكتفى في هذا المرفق العظيم بالعدد القليل، بل لابد من العناية بهذا المرفق ليكون فيه العدد كافيًا لإقامة هذه الشعيرة العظيمة، من كل الوجوه، سواءً من الناحية العديدة أم التأهيلية، أم الإدارية، أم الفنية، أم المادية، وأمَّا معنى التنوع فلعله يوحي بضرورة مشاركة الكل، ومن كل الأطياف والجهات في إقامة هذه الشعيرة، كما أنَّه قد يشير إلى التنوع في نوعية العاملين، فقد يكون بعضهم مباشرًا لهذا العمل، وبعضهم مساندًا له، وبعضهم داعمًا له، وهكذا، وهذا يعني

ضرورة العناية بإيجاد الكوادر اللازمة لإقامة هذه الشعيرة، من الفنيين والإداريين والمتخصصين، وهكذا.

وأما المعنى الثالث وهو كونها فئة تؤم وتقصد، فقد يشير هذا إلى كونهم علماء، أو من طلبة علم، أو من العارفين بما يعملون، وهم الذين يحتاج الناس إليهم، ويقصدونهم، أو لكونهم من ذوي المكانة والجاه، أو هم ممن له يد على الناس بمساعدتهم لهم وإحسانهم إليهم، والله أعلم في ذلك.

خامسًا: كل ما سبق يوحي بضرورة إيجاد هذا المرفق الحيوي في الدولة المسلمة، وقد جاء في هذه الآية، تحديد المهمات التي يقوم بها هذا المرفق الحيوي، والخطوات التي يتبعها في تنفيذ هذه المهمات الموكلة به، كل ذلك جاء في إيجاز معجز في قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، فلو تأملنا المهمات والوظائف المناطة بهذا المرفق، لوجدناها في هذه الآية بالطريقة الآتية، والترتيب الآتي: الدعوة إلى الخير، الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وقد جاءت هذه المهمات بهذا الترتيب لتمثل أيضًا الخطوات التي ينبغي اتباعها للقائمين بهذه الشعيرة، وقد جاءت الأفعال كلها بهذه المهمات بصيغة المضارع، وجاءت أيضًا مُعدَّاة بحروف معينة، فقال سبحانه تعالى: ﴿يَدْعُونَ إِلَى﴾، ﴿يأمرون بـ﴾، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ﴾، ممَّا يُوحي بالتجدد والحركة، وأما تغير حروف الجر التي عديت بها، وهي (إلى) و(الباء) و(عن)، فإنَّ ذلك يدل على أنَّ لكل منها مناسبة معينة، ودلالة خاصة، سيأتي بيانها-إن شاء الله-فيما سيأتي من تعليل وتحليل لهذه الآية العظيمة.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس السادس

﴿ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ ﴾

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وبعد:

سيكون حديثنا مستمرًا عن قول الحق تبارك وتعالى فيما يخص المحتسبين ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾(آل عمران: ١٠٤)، وكنا قد توقفنا في اللقاء الماضي عند المهمات والوظائف المناطةِ بهذا المرفق الحيوي، وهي الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهيُ عن المنكر، وقد توقفنا عند "خامسًا" في لقائنا الماضي، والآن نستأنف هذه الوقفات، ووقفتنا هذه ستكون مع "سادسًا" وهي عند قوله تعالى: ﴿ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ ﴾، نجد إذا تأملنا هذه الصفة الأولى ﴿ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ ﴾ لهذه الفئة المشرفة بهذه الشعيرة نجدهم يدعون إلى الخير، وهي التي أيضًا تمثل الخطوة الأولى في المهمات المناطة بهذه الفئة المختارة، وهذه الخطوة وهي الدعوة إلى الخير لو تأملناها لوجدنا أنها ترسخ هذا العمل الجليل، وهو الاحتساب، لماذا؟، لأنَّ الدعوة إلى الخير أمرٌ مقبول عند الناس، بل هو محبب إلى النفس، بل الكل يميل إلى المشاركة فيه، وقد قيل: إن حب المشاركة في الخير من غريزة البشر، لذا تجد الصبي إذا رأى شيئًا يعجبه نادى من حوله ليراه معه، وفي تقديم هذه المهمة ﴿ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ ﴾ على غيرها ملمحٌ لطيف يتعلق بنوعية الأسلوب الذي ينبغي اتباعه في التعامل مع الناس، لكسب قلوبهم، ألا وهو الإحسان إليهم بدعوتهم إلى الخير، ولا يخفى أنَّ كلمة الخير لفظة جميلة، مأنوسةٌ عند كل الناس، توحي بالنفع والإحسان، والإنسان بطبعه مَيَّال إلى حب من أحسن إليه، وتعدية الفعل بـ﴿إلى﴾ الدالة على انتهاء الغاية دون اللام، بأنْ يقال مثلًا: يدعون للخير، للإشعار بأن مراد هذه الفئة الطيبة المحسنة هو الأخذ بأيدي الناس المحتاجين لذلك الخير، لإيصالهم إليه، فهم لا يكتفون بالدعوة

لمجرد الخير، وإلا لقيل: يدعون للخير، بل همهم الوصول بالناس إليه، كما تشعر بذلك (إلى) الدالة على انتهاء الغاية، وهذا أوضح في دلالة النفع والإحسان، وهو معنى لطيف، يحسن بأهل الاحتساب الانتباه إليه.

سابعًا: في قوله تعالى: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بيان للمهمة الثانية، وهي تمثل أيضًا الخطوة الثانية، وإنما ذكرت هنا بعد الدعوة إلى الخير لأنَّه لَّما كان الأمر (تأمرون) فيه ثقل الإلزام، سُبِقَ بما يخففه، ويجعلهُ مقبولًا، وهو بلسم الإحسان ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾، وهذا يدل على أنَّ الذي ينبغي أن يُعرف عن القائمين بهذه الشعيرة ليس هو الإلزام، والأمر، والمنع، والنهي فحسب، بل هم قبل ذلك يجب أن يعرفوا بالكلمة اللينة والنفع العام للناس، ولذلك أرى في اجتماع هذه المهمات وبهذا الترتيب ما يوحي بضرورة اجتماع الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في جهاز واحد، لا كما هو موجود الآن؛ لأنَّ نظرة الناس الآن للدعاة ليست كنظرتهم للمحتسبين، فالدعاة لو تأملنا نجدهم مقبولين محبوبين عند الناس، يجتمع لهم الناس، ويأنسون بهم، ويتقبلون أمرهم ونهيهم، والقائمين بهذه الشعيرة في الغالب يكثر ذمهم، وتنفر منهم النفوس، أو تحاك حولهم الشائعات والأكاذيب، وقد يكون هذا أمرًا طبعيًا؛ لأنَّ النفوس ميَّالةٌ إلى كره مَنْ يلزمها أو يمنعها، وحب من ينفعها ويحسِن إليها، لكن يحسن ألاَّ نُهمل هذا الملمح وأنْ نتنبه إليه، والذي أريد الوصول إليه هو ضرورة التفكير في الإفادة من هذا القبول للدعاة، لتخفيف هذا الكره والنفرة الموجودة، خاصة مع هذا الترتيب الإلهي لمهمات هذه الفئة الخيّرة، رفع الله قدرها، ولعل هذا يظهر بوضوح إذا اجتمعت الدعوة والاحتساب في شخصية رجل واحد، معروف بعلمه، وصلاحه، وحبه لنفع الناس، ودعوته إليهم، فإنَّ الاستجابة لذلك الإنسان ستكون عظيمة جدًا، بخلاف ما يحصل مع الفصل الذي نراه الآن من الدعوة والاحتساب، وأرى أن تقدم الدعوة إلى الخير، على الأمر بالمعروف، يشعر بأنَّ لغة الأمر يجب أن تكون مقبولة ليِّنة؛ لتتناسب مع السياق المبني على كسب

القلوب، لا تنفيرها، وتعدية الفعل ﴿يَأْمُرُونَ﴾ بحرف الجر الباء، الدال على الإلصاق والمصاحبة في أصل معناه ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، يشعر بأن الذي ينبغي أن يصاحب أمرهم هو المعروف، وهذا يتطلب المحافظة على نقاوة هذا المعروف وصفائه من أي شائبة، حتى لا يتحول الأمر إلى غير المعروف، ولفظ (المعروف) زيادة على معناه المفهوم من لفظه يشير إلى ما يعرفه الناس، كما أن المنكر يشير إلى ما أنكره الناس، وما لم يعرفوه، وعلى هذا لو تأملنا أخطاء الناس، سواء أكان هذا في ترك الخير أم كان في فعل الشر؛ لوجدنا أنه لا يخرج عن إحدى حالتين: إمَّا أنْ يكون صاحبه جاهلًا بهذا الخير، أو ذلك الشر، وهنا تأتي خطوة يدعون إلى الخير، فإذا عرف الناس ذلك، ولم يفعلوه، أو ارتكبوا المنكر، جاء أمرهم بما يعرفون، أو نهيهم عما ينكر، وهذا يشير بدوره إلى أنَّ المعروف في أصل المجتمع المسلم هو الأمر السائد، وأنَّ الخروج عليه يعتبر أمرًا منكرًا، أي: غير مألوف، وإذا كانت الحالة بهذه المثابة، سهل على القائمين على هذه الشعيرة إقامة هذه الشعيرة، لأنَّ الكل يساندهم في ذلك، أما إذا اختلف الأمر فأصبح المعروف منكرًا، والعكس، فأرى أنَّ دلالة الآية تشير إلى ضرورة التعليم والدعوة إلى الخير، وهي الخطوة الأولى، حتى يظهر عرف المعروف، ونكران المنكر، ثم تليها خطوة الأمر والنهي، هذا في الجملة، وخروج بعض الحالات المقتضية لغير ذلك لا ينقض عموم القاعدة.

ثامنًا: قوله تعالى: ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، هذه هي المهمة الثالثة، وهي تمثل الخطوة الثالثة، ونلاحظ هنا-أيها الأخ الكريم-كيف تأخر النهي عن المنكر؛ لأنَّه أشقُّ على النفس، وقد سبقته خطوتان مهمتان تسهّلان قبوله، وربما لا يبقى في المجتمع أو في الجهة المطلوب الاحتساب عليها شيء من ذلك بعد الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، وإن بقيَ كان النهي عنه مقبولًا ومسوغًا، بل قد يكون ضروريًا، وما يشعر بضرورة إزالة المنكر في هذه المرحلة:

تعدية الفعل بحرف الجر (عن)، لأنَّه يدل على المجاوزة، فالمطلوب بعد هاتين الخطوتين السابقين، هو الاستمرار في النهي، أي: نهي المُصِرِّين على المنكر، حتى يتركوه ويتجاوزوه.

تاسعًا: يقول الله عز وجل في ختام هذه الآية في الثناء على القائمين بهذه الشعيرة: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، وفي التعقيب بهذه الجملة إشادة عظيمة بهذه الفئة المختارة، وذلك من وجوه عدة، وهي:

أولًا: مجيء (الواو) في أول الجملة على سبيل الاتصال، فلم تفصل الجملة فيقال: أولئك هم المفلحون؛ للدلالة على أنَّ صفة الفلاح التي يسعون إليها، هي جزاءٌ لذلك العمل الجديد.

ثانيًا: الإشارة إليهم بالبعيد ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ مما يدل على علو مرتبتهم، ورفعة منزلتهم، حتى لكأنهم في مرتفع عال يشار إليهم ويقال: أولئك، ولو كانوا قريبين، لقيل: هؤلاء، فنُزِّل علوهم المعنوي منزلة علوهم المادي، لذلك أُشير إليهم بالبعيد، هذا إضافة لما في الإشارة من تحديد المُشار إليه أدق تحديد، وفي هذا تمييز لهم، فجمعت هذه الآية بين الإشادة بهم، ورفع مكانتهم، وبين تمييزهم عن غيرهم، فلله درهم ما أعظم شأنهم.

ثالثًا: وجود ضمير الفصل ﴿هُمُ﴾ الدال على الحصر والقصر، إذ المعنى العام للجملة يفهم دون ذكره، أولئك المفلحون، وله نظائر في القرآن، كما في قوله تعالى أولئك المقربون، لكن لمَّا أُريد تخصيصهم بهذا الفصل، وحصر هذه الصفة العظيمة عليهم، وهي: الفلاح، قيل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، فكأنهم بهذا هم الكاملون الوحيدون في هذه الصفة، وكأنَّ فلاح غيرهم لا يُعتد به مع فلاحهم.

رابعًا: ذكر الفلاح أو صفة الفلاح ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، وتعريفها باللام، فلم يكن مثلًا: أولئك هم أهل الفلاح، فيكون التعريف بالإضافة، في ذلك من الإشادة بشأنهم وعظم منزلتهم، وما يجب عليهم من العمل مالا يخفى، وذلك لأنَّ الذي أوصلهم إلى هذه الصفة العظيمة؛ وهي الفلاح -الذي يعني: الفوز والنجاح- هو قيامهم بهذا العمل الجليل، وتعريف المفلحين بـ(اللام) للإشعار بما يعرفه كل أحد عن حقيقة الفلاح وأهله، ففلاحهم لن يخفى لا في الدنيا، ولا في الآخرة.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس السابع

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

سنقف بمشيئة الله تعالى مع آية الخيرية، لأهل الاحتساب من هذه الأمة، قال الله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾(آل عمران: ١١٠)، سنقف مع جزءٍ من هذه الآية لبيان ما فيها ما الدلالات.

أولًا: نلحظ في هذه الآية الكريمة كيف بُدِئت بفعل الكون ﴿ كُنتُمْ ﴾، وقد جاء هنا بصيغة الماضي، ومادة الكون تدل على التمكن والعراقة في الشيء، والماضي يدل على قدم اتصافهم بما يذكر، مما يدل على جدارتهم وعلو قدرهم فيه، وقيل إذًا: إنَّ المراد هم أصحاب النبي ﷺ خاصة؛ لذا خاطبهم الله عز وجل وقال: ﴿ كُنتُمْ ﴾، وما قال الله ﷻ: أنتم خير أمة، قال عمر ﭬ: لو شاء الله عز وجل لقال: أنتم، فكنا كلنا، ولكن قال: ﴿ كُنتُمْ ﴾، في خاصة أصحاب رسول الله ﷺ، ومَنْ صنع مثل صنيعهم كانوا خير أمة أُخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولعل الأرجح أنهم هذه الأمة بعمومها، وأنهم خيرُ الأمم، ولكن إذا كان ذلك كذلك، فما سر مجيء سر الفعل الماضي ﴿ كُنتُمْ ﴾؟ خصوصًا أنَّ الماضيَ هنا قد يومئ ويشعر أنهم كانوا خيارًا ثم تغيروا بعد ذلك، فقد يشعر هذا بالذنب؟

جواب ذلك: أنَّ فعل الكون هنا يدل على العراقة والتمكن، لا على التحول، فتكون (كان) تامة، بمعنى: وجد وخلق، أي: وجدتم خير أمة، أو خلقتم خير أمة، وقيل: بل كان على بابها، والمراد: كنتم، أي: في اللوح المحفوظ، والقولان الأولان أشبه بالمعنى.

ثانيًا: ذكر ضمير المخاطبة ﴿كُنتُمْ﴾ للإشعار بتكريم المخاطبين، وذكر الخيرية ﴿خَيْرَ﴾، وجعلها خبرًا لكان، للدلالة على (الخيرية) هي الأمر الذي تمكن فيهم وهم عالقون فيه، والخير ضد الشر، فبقدر ما يكون الشر مذمومًا يكون الخير محمودًا، فبالتالي كان عمل هذه الفئة هو الخير الموصول إلى الخير، وهذه الأمة هي خير الأمم وإن كانت آخرها، لذلك قال النبي ﷺ: «أنتم توفون سبعين أمة أنتم آخرها وأكرمها على الله»[1]، وقال الحسن: «نحن آخرها وأكرمها عند الله»، وقد يطرأ سؤال هنا:

كيف تقيد خيرية هذه الأمة أولها وآخرها، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما من فروض الكفاية التي لا يقوم بها كل الناس؟

إجابة على ذلك يقال: إنَّ في ذلك إلماحًا إلى قيام الكل بهذه الشعيرة، كل بحسب طاقته، حتى يحصل على الخيرية العظيمة، والعجب والله من الذين يتركون هذه الشعيرة، وأحيانًا يحاربونها، أين هم من طلب هذه الخيرية العظيمة؟! إنَّ كلَّ واحدٍ منا يجب أن يبحث عن هذه الخيرية في بيته، وفي حارته، وفي شارعه، ولن يعدم أي إنسان سبيلًا للقيام بذلك، ولو على سبيل التطوع وطلب الأجر من الله ﷻ بحثًا عن هذه الخيرية، وإسهامًا في إيجادها في هذه الأمة، وهذا يدل أيضًا على أن قيام طوائف من المؤمنين بذلك موجب للخيرية لجميع الأمة، وهذا -والله- فضلٌ كبير من الله عز وجل، وأيضًا هو فضلٌ كبير من هؤلاء على الأمة جمعاء، ولابد أنْ يُشَاد به، وأن يشكر فضلهم في هذا المجال، وهذا يدل أيضًا من جانب آخر على أنَّ هذه الشعيرة لن تنقطع ولن تزول؛ لأنَّ الخيرية في هذه

(١) المعجم الكبير (١٩/ ٤٢٦)

الأمة ثابتة على لسان نبيها ﷺ، والخيرية -كما رأينا- مرتبطة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فعلمنا من ذلك أنَّ هذه الشعيرة لن تزول لوجود هذه الأمة.

ثالثًا: بناء الفعل ﴿ أُخْرِجَتْ ﴾ بصيغة (أفعل)، دون (فعل) خرجت، لبيان أنها لم تخرج بنفسها، بل الذي أخرجها هو الله ﷻ، وإنما بُنِيَ الفعل للمجهول ﴿ أُخْرِجَتْ ﴾ للفت النظر للفعل وهو الإخراج، لأنَّ المُخرِجَ لها هو الله ﷻ، وفي حذف الفاعل إظهار أنَّ الفعل لا يكون إلى منه ﷻ، وهذه مِنَّةٌ أخرى على هذه الأمة، والتعبير بمادة الإخراج هنا فيه إشادة وعناية بهذه الأمة المطبِّقة لهذه الشعيرة، ففي الإخراج إبرازٌ لها وإظهار، وفي هذا تكريم لها، وعناية بشأنها بين الأمم.

رابعًا: قوله تعالى: ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ في تعدية الفعل (باللام) دون (إلى) للإشعار بالخصوصية والقصد، لا مجرد الوصول والانتهاء، والتعميم في كلمة (الناس) لبيان أنَّ كل البشرية بحاجة إلى هذه الشعيرة لتنعم بالسعادة، لذلك قيل في معناها: هم خير الناس للناس، قال أبو هريرة رضي الله عنه: «كنتم خير الناس للناس، تأتون بهم في الأصفاد والسلاسل، حتى تدخلوهم الجنة»[1].

وفي التعميم في قوله تعالى: ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ زيادة على ما ذكرنا إشادة كبيرة بهذه الفئة، فلئن كان غيركم قد أخرج لأي أحد، فأنتم بالذات خير من أُخرج للناس على الإطلاق، وهذه إشادة كبيرة، يحق لهذه الأمةِ أنْ تفخر بها.

وبعد هذه المقدمة المشعرة بالتكريم، والمشوِّقة لمعرفة صفات أهل الخيرية، جاء التفصيل في قوله تعالى: ﴿ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾، وهو ما نذكره في (خامسًا).

---

(١) صحيح البخاري (١٥/ ٧٤)

خامسًا: نلحظ هنا في قوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾أنَّ الفعل جاء بالمضارع، مع أن ما سبقه كان بالماضي ﴿كُنتُمْ﴾، وذلك لأنَّ هذه الشعيرة لا تعرف التوقف، بل هي دائمة متجددة، وهذا ما يدل عليه المضارع، لأنَّ صيغة الاستقبال الموجودة فيه تدل على الاستمرار التجددي في هذه الشعيرة، وهذا الاستمرار هو المطلوب في هذه الشعيرة، وهو شرط الخيرية، وهذا الاستمرار التجددي هو شرط الخيرية في هذه الشعيرة، والبدء بالأمر بالمعروف قبل الإيمان بالله عز وجل له أسرار، والبدء بالأمر بالمعروف قبل النهي عن المنكر، لما في الأمر بالمعروف من القبول أكثر من النهي عن المنكر، لأنَّ الأمر بالمعروف قد يصادف عند الناس أمورًا يحبونها فيستجيبون له، أمَّا النهي فإنَّ فيه منعًا للناس عن ملاذهم وما يشتهون، وهذا أصعب على النفس بالتجربة.

سادسا: في قوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ نجد أنَّ الأوصاف الموجودة هنا ثلاثة: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإيمان بالله، والبدء بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قبل الإيمان لعل سرّه يعود أنَّ غيرهم شركَهم في الإيمان بالله، والمطلوب هنا هو الوصف المميّز لهم، وهو في هذا السياق هذه الشعيرة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، فالمقام هنا يقتضي تقديم ما به يتميزون، لأنه مسوقٌ للتنويه بفضيلة هذه الشعيرة، فذكر الإيمان دليل على أنَّ هذه الشعيرة المحمودة، لو حصلت من غير المؤمنين لم تكن سببًا لخيريتهم.

ولعل ما ذكرناه يكون كافيًا في بيان منزلة هذه الشعيرة العظيمة أسأل الله عز وجل أن نكون من أهلها، والداعمين للقائمين بها، إنَّه وليُّ ذلك والقادر

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الضمان الإلهي من العذاب

الحمدُ لله رَبِّ العالمينِ، والصلاةُ والسلامُ على المبعُوثِ رحمةً للعالمينِ، نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبه أجمعين، أمَّا بَعد:

فهذه بشارة نسوقها من خلال هذه الآية العظيمة: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾(الأنفال: ٣٣).

ما أعجب نظم هذه الآية، وما أعظم ما تحمل من البشارة للمؤمنين، المتقين إنهما ضمانان من الله من عذاب الله، المضمونُ هو أشدُ ما يخافه المؤمنون، وهو عذاب الله ونقمته، والضامن هو أعظم مَنْ يرجوه المؤمنون وهو الله جلت قدرته.

أيها المؤمن بربه، تعال معنا الآن في سياحة تأملية تفكيرية في ظلال هذه الآية لنكشف عن شيء من مدلولاتها، التي تدور حول الضمان المذكور سابقًا. وقبل أن نتعمق في دقائق هذه الآية لابد أن ندرك أن إقرار العذاب بعد هذه الآية في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ ﴾(الأنفال: ٣٤) أن الضمان الوارد هو في حق مَنْ هذه صفته الولاية والتقوى، أما المشركون فليس لهم إلا الضمان الأول المرتبط بوجود النبي ﷺ أي: وما كان الله يعذبهم وأنت فيهم، وهو معذبهم إذا أنت فارقتهم.

ويمكننا تلمس تلك الدلالات من خلال هذه الوقفات:

أولًا: تأمل-رعاك الله-طريقة النفي (وما كان الله) في الموضعين، دون أن يقال مثلًا: ولن يعذبهم الله، وذلك لما في نفي (كان) من الدلالة على عراقة النفي، وتأصله

وتأكده فكأنه قيل: ما كان ليعذبهم في الماضي ولن يعذبهم فيما بقي أو ما يستقبل، وإذا أدركنا أن الآية مدارها على الضمان، المراد منه طمأنة المؤمنين، عرفنا سر مجيء النفي بهذه الطريقة المشعرة بزيادة الأمان لأهل الإيمان.

ثانيًا: ذكر لفظ الجلالة دون أسمائه الأخرى، وذلك لما في هذا الاسم الجليل من بث الشعور بقوة الضمان، لما في لفظ الجلالة (الله) من المهابة والفخامة، وكثيرًا ما ذكر هذا الاسم الجليل في مواطن القوة والقدرة، ويدل على ذلك تكرر لفظ الجلالة (الله) مع الضمان الثاني، وما كان معذبهم وهم يستغفرون).

ثالثًا: مجيء (لام) الجحود، الدال ذكرها على أن الفعل المنفي لا يصدر عادة من اسمها وهو هنا لفظ الجلالة، إمعانًا في نفي ذلك الفعل وهو هنا العذاب فكأنه بذلك (جُحد) هذا الفعل عن ذلك الفاعل مبالغة في التنزه عنه؛ لذلك سميت بلام الجحود.

رابعًا: كون المنفي عنهم هو عذاب الله، وهو أخوف ما يخاف المؤمن، فنفيه عنه هو من غاية سعادته وأنسه.

خامسًا: مجيء العذاب المنفي بالفعل المضارع (يعذبهم)، وذلك لما في الضمان الأول من دلالة الانقطاع لأنه مؤقت بكون النبي ﷺ فيهم، فناسب انقطاع هذا الضمان أن يكون الفعل المعبر به عنه مضارعًا.

سادسًا: مجيء المصروف عنهم العذاب بالضمير المتصل (هم) في المواضع كلها (ليعذبهم – فيهم – وهم) دون الظاهر بأن يقال: وما كان الله ليعذب المؤمنين وأنت فيهم، قد يكون فوق أنه هو الأصل في مثل هذه الحال لطيفة جميلة وهي: صون ذكرهم بعنوان الإيمان أو التقوى مع العذاب، فذلك أعظم في تكريمهم والإشادة بمكانتهم حتى إنهم لم يذكروا مع العذاب بالصريح بل بالكناية وهو الضمير الغائب ليكون أبعد عن ربطهم بالعذاب.

سابعًا: تعريف النبي ﷺ بضمير المخاطب (أنت) دون الاسم الظاهر بأن يقال: (والرسول فيهم، أو النبي فيهم)، ودون الغائب (وهو فيهم)، لما في المخاطبة من التكريم؛ لأن السياق للثناء، بل هو من أعظم الثناء، كما أن في (ضمير المخاطب) من دلالة القرب ما لا يخفى، وفي ضمير الغائب من البعد ما لا يخفى.

ثامنًا: مجيء الجار هنا (في) دون (مع) مثلًا المشعرة باختلاطه بهم ﷺ، لما في (في) من دلالة الظرفية المشعرة بقوة إحاطتهم به، فكأنهم أصبحوا كالظرف الذي يحيط به ﷺ وهذا أكثر تصويرًا لارتباطه، والتفافهم حوله، واتباعهم له، ولو قيل (وأنت معهم) لربما لأشعر ذلك بأن معيتهم مؤقتة فقد يكون معهم زمنًا ويتركهم آخر، ثم إن المعية لا تتحقق معهم كلهم، أما الظرفية فإنها مشعرة بوجوده الدائم فيهم وتأثيره البليغ، وارتباطهم الشديد، وإن لم يبلغه جمعهم كلُّه.

تاسعًا: مع مجيء الجملة الحالية (وأنت فيهم) لتكون قيدًا للنفي، فالنفي مرتبط بوجود هذه الحال، وهذا والله هو التكريم، فلأجل وجوده ﷺ يتفضل المولى ﷻ بصرف العذاب عنهم، وهذا الضمان يشمل حتى الكفار إمعانًا في تقدير شخص النبي الكريم ﷺ فإنه (ولأجل عين ألفُ عين تُكرَم).

عاشرًا: إظهار لفظ الجلالة (الله) في مقام الإضمار لأنه تقدم ذكره، فالمقتضى أن يقال: وما كان معذبهم وهم يستغفرون، ولكنْ في إظهار الاسم الجليل تأكيد للضمان المذكور، وتربية للمهابة المفضية إلى طمأنة المؤمنين بالضمان الثاني وأنه بقدر الضمان الأول، فالضامن واحد وهو الله جلت قدرته.

الحادي عشر: تكرار النفي (وما كان الله) دون أن يقال: (وما كان ليعذبهم وأنت فيهم وهم يستغفرون) لبيان أن الضمانين مختلفان، وأنَّ كل واحد منهما كاف لصرف

العذاب عنهم، ولا يشترط وجودهما مع بعضهما فلله الحمد والمنة.

الثاني عشر: مجيء العذاب لمنفي في الضمان الثاني بالاسم (معذبهم) بخلاف الأول بالفعل (يعذبهم) لما في الضمان الثاني من الاستمرار والدوام، وهذا ما يدل عليه الاسم دون الفعل المشعر بالانقطاع والحدوث، فحيثما دام الاستغفار كان الأمان.

الثالث عشر: مجيء الجملة الحالية (وهم يستغفرون)؛ لبيان أن نفي العذاب وصرفه عنهم مرهون بهذا القيد (وهم يستغفرون)، وفي هذا من شحذ الهمة للاهتمام بشأن الاستغفار ما لا يخفى، وهذه طريقة حبذا أن يتنبه لها المربون، وهي تقييد صرف ما يرهبه الإنسان وينفر منه بفعل ما تريد تربيته عليه، فهو بهذا يقوم بالمراد وهو يشعر في مقابل ذلك بالعطاء والنفع، فقد رُبِطَ نفي العذاب عنهم بالدوام المتجدد على الاستغفار، فتحقق بذلك حبهم للاستغفار، لأنه جلب نفعًا يدفع العذاب عنهم.

الرابع عشر: مجيء الاستغفار بالفعل المضارع دون الاسم (وهم مستغفرون)؛ لأن المناسب لشأن الاستغفار هو إنشاؤه وإحداثه وتجدده مع دوام في أصل الحالة، والاسم يشعر بوجود ذلك إما على وتيرة واحدة، أو مرة واحدة، وكل ذلك لا يتناسب مع شأن الاستغفار الذي أسبابه كثيرة ومتنوعة، وقد تختلف من إنسان لآخر بحسب حاله.

الخامس عشر: جُعِلَ الاستغفار هو الضمان المقابل لضمان وجود النبي ﷺ وإدامة صرف العذاب بسببه، فيه رفع لمكانة الاستغفار، وتنويه بها، فهل شعرت بهذا أيها المؤمن بربه، وهل شاركت أفراد الأمة في إيجاد هذا الضمان واستمراريته؟

أترك الإجابة لفكرك وتأملك، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس التاسع

﴿ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ﴾

الحمدُ لله رَبِّ العالمينِ، والصلاةُ والسلامُ على المبعُوثِ رحمةً للعالمينِ، نبيّنا محمدٍ وعلى آلهِ وصحبه أجمعين، أمَّا بَعد:

سيكون حديثنا عن آية من آيات الجهاد في سبيل الله، هي قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(التوبة: ٣٨، ٣٩).

يذكر ابن عطية ﷺ أنَّه لا اختلاف بين العلماء في أنَّ هذه الآية نزلت عتابًا على من تخلف عن غزوة تبوك (غزوة العسرة)، إذ تخلّف عنها قبائل ورجالٌ من المؤمنين والمنافقين، وذلك بعد ما استنفر النبي ﷺ أصحابه إلى تبوك، في رجب سنة تسع من الهجرة، وكشف لهم عن الوجهة التي يريدها على غير عادته ﷺ في غزواته كلها، مما يعد ركيزة من زكائر التخطيط الحربي، فإنما فعل ذلك ﷺ لبعد الشُقة، وعظم المشقة، ولذلك سميت هذه الغزوة غزوة العسرة، وهذه الآيات التي نتحدث عنها تصور جزءًا من هذه المعركة وخصوصًا ما يتعلق بحال النفسيات عند تلقي خبر

القرار النبوي بالغزو، في مثل هذه الظروف الصعبة، وقد اجتمع في هذه الغزوة من الشدة وهول الأمر ما لم يجتمع في غيرها، فالأخبار تترامى إلى المدينة بحشود الروم الهائلة التي وصلت إلى أرض البلقاء من أرض الأردن، وأعدادهم تزيد على أربعين ألفًا، والمنافقون يتربصون بالمؤمنين، ويتمنون قدوم العدو لنصرته، والحر شديد والمسافة بعيدة، كل هذه العوامل أشغلت النبي ﷺ حتى قرّر قراره الحاسم بالمواجهة، رغم كل هذه الظروف الصعبة.

لذا كان لهذه الغزوة ميزة عن غيرها، فلم يوضح النبي ﷺ لأحدٍ وجهته إلا فيها، حتى يكون الناس على جلية من أمرهم، كما أنها كشفت الصادقين من المنافقين، وعالجت بعض أمراض النفوس التي خالطتها من حب الدنيا والراحة، كما أنها زرعت في قلوب المؤمنين طمأنينة وعزة، وفي قلوب الأعداء خوفًا وذلة، لذا جاء تصوير القرآن لأحداثها مهتمًا بأحوال الناس، وكيفية معالجتها على ما سنبينه إن شاء الله من خلال هذا التحليل لأحداث هذه القصة، من خلال الآية المذكورة.

أولًا: قوله تعالى:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾، هذا نداءٌ بعنوان الإيمان للمؤمنين، فهو سبحانه يذكّرهم بوصفهم المميَّز الذي ينبغي لمن اتصف به ألاَّ يتخاذل عن نصرةِ هذا الدين العظيم، وبعد هذا النداء المحرّك لأهمِّ دوافع الإيمان، نجد هذا السؤال الإنكاري ﴿مَا لَكُمْ ﴾، والمعنى: أي شيء ثابت لكم؟، والسؤال فيه من هز وتحريك المسؤول ما ليس بالخبر العادي، لأنَّ السؤال يحتاج جوابًا، وهو

يسترعي الانتباه، ويوقظ الغافل، وهذا يدل على عظم الأمر وأهمية المسؤول عنه، حيث احتاج إلى كل هذا التنبيه، فأولًا النداء، وثانيًا نعت المنادى بالوصف المميز له؛ وهو الإيمان، وثالثًا سؤالهم بـ(مالكم) الإنكاري.

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمُ﴾، (إذا) ظرف أوضح الزمن الذي حصل فيه الإنكار على صنيعهم، وبُنِيَ الفعل (قيل) للمجهول للإشعار بأن الأهمية منصرفة إلى الفعل؛ وهو الدعوة إلى النفير؛ بغض النظر عن القائل، وفي هذا إشارة إلى أن خطورة هذا التخلف أو هذا التثاقل ليس مرتبطًا بشخص النبي ﷺ، أو وجوده، بل هو حاصلٌ مع كل قائد مسلم يدعو إلى النفير، كما أنَّ عدم ذكر القائل وهو النبي ﷺ فيه من التأنيب والإغلاظ والزجر والإشعار بعدم رضاه ﷺ عن فعل المخاطبين مالا يخفى، حتى لكأنهم لا يستحقون أن يُذكر اسمه الشريف معهم، وفي قوله تعالى: ﴿لَكُمُ﴾ وتكرارها مرتين في السؤال وفي القول تنبيه إلى توجيه القول إلى المخاطبين، مما يشعر بضرورة إنصاتهم له، واهتمامهم به.

ثالثًا: قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ولم يقل سبحانه جاهدوا أو قاتلوا، بل قال انفروا لأن النفر هو الخروج السريع من موضعٍ إلى آخر، لأمرٍ يحدث، كما أنه الانزعاج من شيء إلى شيء، والفزع من شيء وعن شيء، ونلمح من هذا أمرين مهمين، هما الانتقال والسرعة، وهما أمران مطلوبان وخصوصًا في مثل حال غزوة تبوك، لذا كان المذموم فيها ما كان ضد الانتقال والسرعة؛ وهو التثاقل التراخي.

رابعًا: في قوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ولم يقل (إلى سبيل الله) أو (إلى الجهاد)، هذا الأسلوب هو السائد عن هذا الأمر في القرآن، ولا شك أن وراءه سر، وقوله جلت قدرته: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فيه إبراز لكون هذا النفير في وجهه الصحيح (في سبيل الله)، والتعبير بـ(في) دون (إلى) مثلًا، للإشعار بأنَّ هذا الجهد إنما هو في دائرة سبيل الله، لا يخرج عنه، بل هو مظروف به، لذا لابد أنْ يكون خالصًا لوجه الله، ولو قيل إلى سبيل الله، لأشعر ذلك أن سبيل الله أمرٌ يطلب النفير إليه لا من أجله، بل يطلب النفير إليه حتى يُبْلغ، وليس هذا هو المراد هنا.

وكلمة (سبيل) تدل على الطريق الذي ينبغي أن يسلك في مثل هذا الحدث، وإضافته إلى الله ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ للإشعار بأن هناك سبلًا أخرى يمكن أن يسير في مضمارها هذا الفعل (النفير)، فهناك سبيل النفس، والهوى، والشيطان، والسمعة، والحمية، وغير ذلك، وفي هذا لفتةٌ لخطورة موضوع الجهاد، وضرورة الاهتمام بإخلاص النية فيه، والابتعاد عن حظوظ النفس وشهواتها.

خامسًا: قوله تعالى: ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ هذا تصوير بليغ لحال المتراخين عن تلك الغزوة، حيث اختزلت هذه الكلمة حالهم كله في صورة جسدية ونفسية معبرّة، وهذه الكلمة هي محل الإنكار؛ أي: مالكم اثاقلتم، لذا كانت هي بؤرة المعنى، فهذه الكلمة (اثاقلتم) صوَّرت بثقلها في النطق الثقل عن الجهاد الناتج عن حب البقاء وكره مشقة السفر، وقد جاءت هذه الكلمة دالةً بتركيب حروفها

على تلك المعاني مصورّةً لتلك الحال أدق تصوير، يقول البقاعي ﵀: «اثاقلتم أي: تثاقلتم تثاقلًا عظيمًا، وفيه ما لم يذكروا له سببًا ظاهرًا، بما أشار إليه الإدغام، أي في الكلمة، إخلادًا وميلًا (إلى الأرض)»[1].

إن الأذن لتسمع كلمة (اثقالتم) فيتصور الخيال حينها ذلك الجسم المُثاقل، يرفعه الرافعون في جهدٍ، فيسقط من أيديهم في ثقل.

إنَّ في هذه الكلمة طنًا على الأقل من الأثقال، ولو أنك قلت: تثاقلتم، لخفّ الجَرْس، ولضاع الأثر المنشود، ولتوارت الصورة المطلوبة التي رسمها هذا اللفظ المعبِّر عن هذه القضية.

سادسًا: في ذكر حرف الجر (إلى) في قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ دون غيرها من حروف الجر؛ لتصوير الميل والإخلاد، فهناك رغبة في الركون، فهو تثاقلٌ يجر صاحبه ولا يتركه حتى يلتصق بالأرض، وحتى يسكن إليها، وفي ذكر الأرض دون أن يقال مثلًا: اثقالتم عن الغزو؛ للإشارة إلى أنَّ الروابط الأرضية هي الجاذبة، بما فيها من حب الحياة والولد والمال والراحة، يقول ابن عاشور ﵀: «وقوله: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ كلام موجه بديع: لأنّ تباطؤهم عن الغزو، وتطلّبهم العذر، كان أعظم بواعثه رغبتهم البقاء في حوائطهم وثمارهم، حتّى جعل بعض المفسّرين

(١) نظم الدرر للبقاعي (٣/ ٤٥٣).

معنى ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾: ملتم إلى أرضكم ودياركم»[1]، ولأن الأرض تذكر دائمًا في مقابل السماء؛ فالأرض في مثلِ هذه الحالة تكون رمزًا للسكون والإخلاد والتراخي، والسماء تكون رمزًا للعلو والسُموِّ والتطلع، ولا شك أن النفوس الكبيرة الحية يؤثر فيها مثل هذا الخطاب، إذ هي تعشق العز والأنفة، وتتوق إلى العلو والقمة، وتنفر من الدنو والسُفل عادة.

هذا ما تيَسر بيانُه في هذه الآية الكريمة، بل في هذا المقطع من آية كريمة، أسألُ الله أن ينفعنا بها سمعنا، إنّه وليُّ ذلك والقادر عليه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) التحرير والتنوير (٦/ ٢٨٥)

المجلس العاشر

﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾

الحمدُ لله رَبِّ العالمينِ، والصلاةُ والسلامُ على المبعُوثِ رحمةً للعالمينِ، نبيّنا محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبه أجمعين، أمَّا بَعد:

وما زال حديثنا عن قول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾(التوبة:٣٨).

وكنا قد وصلنا إلى قوله تعالى: ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾، والآن سنتحدث عن ما بقيَ من هذه الآية العظيمة:

أولًا: قوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، هذا استفهام آخر يقصد منه الإنكار والتوبيخ، مفاده: أنَّ مثل هذا الفعل لا يليق بالمؤمنين الواثقين بوعد الله، الذين يقدّمون الآخرة دومًا على الدنيا، ولأنَّ ترك التعلق في الدنيا، وعدم الرضا بزخارفها من أهم ما يميّز أهل الإيمان، لذا خُوطبوا على صورة استفهام إنكاري توبيخي، مما يوحي بضد هذا، فكأنه قيل: فمثلكم لا يرضى بذلك، ولا يُنتظر مثله منكم، ولا شك أنَّ هذا أسلوب قوي في إثارة الدافع في نفسية الجندي المسلم؛ لأنَّ في ذلك مخاطبةً له على مستوى القيم، التي يؤمن بها، ويدافع عنها، وهذا على خلافِ ما يسعى إليه المحاربون من غير المسلمين، لأنهم يسعون للحياة، لهذا

يخافون الموت، ويحترزون منه أشد الاحتراز، ولا يجدون حافزًا لجنودهم إلاَّ المال، والمناصب، والشهوات، لذلك تجد المراقص عادةً تتقدَّم جنودهم ومعسكراتهم.

وذكر ﴿بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ هنا بهذا الوصف وهو (الدنيا)، هو وصفها الشائع في القرآن، بينما الآخرة تأتي مطلقة؛ للإشعار بتعلق الدُّونيّة بوصفها وصفًا سيئًا بالدنيا، أو لكون الدون وهو: القرب؛ هو سمتها البارزة.

والتعبير بالرضا في قوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم﴾ يشعر بظهور ما يدل على ذلك منهم، لتشنيع الفعل في نفوسهم، وتهويل أمرِهِ عندهم، لكونهم بفعلهم هذا؛ وهو التباطؤ والتثاقل، قد اختاروا الحياة الفانية الدنيا، بل كأنهم رضوا بها، وكل هذا يبعث المؤمنين على النفرة من هذا الفعل، يقول ابن عاشور رحمه الله: «واختير فعل (رَضيتم) دون نحو آثرتم، أو فضّلتم: مبالغة في الإنكار، لأنَّ فعل (رضي بكذا) يدلّ على انشراح النفس، ومنه قول أبي بكر الصديق في حديث الغار«فشرب حتّى رضيت»»[1].

ثانيًا: بالحياة الدنيا في قوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ﴾، (من) الداخلة على (الآخرة) هنا تشعر بالبدلية، أي: كيف ترضون بالدنيا بديلًا عن الآخرة؟، وبهذا يكون هذا الحرف (من) قد أشعر بأن الرضا المذكور عنهم كأنه أُنتزع من الآخرة، وصُرف في الدنيا، وذلك أن (من) تدل في أصلها على ابتداء الغاية، وهذا يشير إلى أن منبع الرضا عند المؤمنين إنما هو في

(١) التحرير والتنوير، (٦ / ٢٨٥)

الآخرة؛ لا في الدنيا، فكأنه مستقر فيها، فالآخرة هي غاية ذلك الرضا، فكأنَّ هذا الفعل المذموم التثاقل قد دل على انتزاع الرضا من مبدئه ومستقره؛ وهو الآخرة، ومنحه للدنيا الفانية، وهذا فيه مزيد لومٍ وتقريع.

ثالثًا: في قوله تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، هنا نفيٌ واقعٌ موقع التعليل للحكم السابق، وما احتوى عليه من اللوم والتقريع، فكأنَّه قيل: ما سبق مذموم؛ لأنَّه من متاع الدنيا، ومتاعها إذا قيس بمتاع الآخرة قليل، والتعبير بكلمة ﴿مَتَٰعُ﴾، لأنَّه من المتعة، وهي اللذة، وهذا دليل على أنَّ الحياة فيها متعة ولكنها قليلة، ووصفه بقليل للتنبيه على رداءته وتفاهته، وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ دون أنْ يقال: مع الآخرة، أو مقابل الآخرة، لما في معنى في من الظرفية، قيل: أنها هنا للمقايسة، والمقايسة إنما جاءت من معنى الظرفية في ﴿فِي﴾، والمعنى: أن أي متاع في الحياة الدنيا إذا أُقحِم في خيرات الآخرة؛ كان قليلًا بالنسبة إلى كثرة خيرات الآخرة، فلزم أنه ما ظهرت قلته إلا عندما قيس بخيراتٍ عظيمة ونُسب إليها؛ وهي في الآخرة.

والملحوظ أنَّ الآخرةَ لم يُذكر معها المتاع، فلم يقل ﷺ: فما متاع الحياة الدنيا في متاع الآخرة؛ وذلك أن الآخرة كلها متاع بالنسبة للمؤمنين، فلا تكليف فيها ولا تعب ولا نصب، وكفى بذلك حافزًا لكل مؤمن، وللمخاطبين الذين التهوا عن النفير ببعض مُتع الأرض.

رابعًا: قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾، هذا وعيد وتهديد وتخويف، جاء عقب اللوم والعتاب، ذلك أن اللوم ورد لأجل التثاقل، فلما أفضى هذا التثاقل إلى التخلف عن القتال، جاء التهديد والوعيد الصريح، وقد يكون هذا الأخير خاصًا بالمنافقين، وما تقدم خاصًا بالمؤمنين، والكلام في الآية يحتمل أنْ يكون وعيدًا لِمَنْ فَعل هذا الفِعل بالعذابِ الأليمِ، أي: في الآخرة، ويحتمل أنْ يكون المقصود أنَّ عدم النفير يُسهِّل مهاجمة العدو لهم في ديارهم، فيصيبهم بذلك العذاب الدنيوي، وقد يأتي أقوام فيأخذون أرضهم وأموالهم، فيكون هذا الحفز لأجل الاهتمام بطاعة القائد فيما أمر من النفير، وعلى كلا المعنَيين نجد سرعة ترتب العذاب، أيًا كان على عدم النفير في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾، وهذا يدل على أنَّ النفير إذا لزم شرعًا، ثم حصل التقاعس عنه؛ ترتّب عليه وجود العذاب الدنيوي أو الأخروي، ولا شك أن المواجهة مع العزة؛ خيرٌ من الاستسلام مع الذلة، وأنَّ الخسارة مع القعود؛ أكثر فداحة من التضحية مع النفير.

وواضحٌ في هذه الآية قوة الحفز للخروج؛ لأن العدو قوي، والمسافة بعيدة، والجو حار، وهناك عوامل كثيرة تدعو إلى الدعة والراحة والتثاقل، وقد تؤدي إلى القعود، لذا نجد هذه التوجيهات الحافزة، والتهديدات الرادعة ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾، والتوكيد هنا بالمفعول المطلق ﴿عَذَابًا ﴾، وتقييده بالصفة ﴿أَلِيمًا ﴾ للتخويف من القعود، فهو ليس مجرد عذاب؛ بل هو مؤلمٌ أيضًا، ولا

شك أن استحلال العدو للأرض والمال، لهو من أشد الألم على الحر الأبي، كما أن عذاب الله في الآخرة لمن حصل منه ذلك رادعٌ مؤلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾، دخول (السين) و(التاء) على الفعل لأجل التأكيد في حصول الاستبدال لمن رضيَ القعود، وترك النفير، والمراد: أن العدو يدخل أرضكم؛ فيكونُ مكانكم، وأن الله يغضب عليكم، ويأتي بأقوام آخرين ينصرون دينه، ويقفون مع نبيه ﷺ.

ومجيء كلمة ﴿قَوْمًا﴾ نكرة لدلالة أن تعيين هؤلاء القوم ليس هو المهم، بل المهم هو وجود الاستبدال، وحلول غيرهم مكانهم، لذا جاءت كلمة ﴿غَيْرَكُمْ﴾ صريحة في هذا الشأن؛ لتأكيد معنى التغاير؛ مما يربي الخوف عند المخاطبين.

سادسًا: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ أي: ولا تضروا الله عز وجل بقعودكم شيئًا، بل أنتم تضرون أنفسكم، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ نجد أنَّ الآية خُتمت بهذا المقطع المُظهر لقدرة الله تعالى، المدلول عليه بلفظ الجلالة ﴿وَاللَّهُ﴾؛ لأنَّ إظهاره يدل على مواطن القوة والعظمة؛ لما فيه من تربية المهابة في النفوس، ونجد في هذا النظم الكريم تقديم الجار والمجرور ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ على كلمة ﴿قَدِيرٌ﴾، مع أن المقتضى (قدير على كل شيء)، لكن في ذكر ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ بعد ذكر لفظ الجلالة تناسبٌ في دلالة العظمة والقدرة، وما يترتب على ذلك من الإحاطة والعلم، فهذا التقديم

قد أكّد دلالة القدرة المراد إظهارها في هذا الموقف؛ حتى يعرف الإنسان قدره مع هذا الخالق العظيم ﷻ.

وهكذا يتضح لنا أنَّ هذا الجزء من الوصف القرآني لغزوة تبوك (العسرة) قد صوّر حال الناس قبل الغزوة، ونوع المعالجة التي عُولج بها الموقف، وقرار الحرب كان حاسمًا ولابد منه، ولو لم تكن الأمور مهيأة كما ينبغي، إلا أن تقوية العزائم والنهوض بها، واستثارة مكامن القوة في نفوس الجنود، والصرامة مع المخذلين، قد يكون-أحيانًا-أهم من العتاد المادي.

هذا ما تيسر بيانُه في شأن هذه الآية العظيمة، نسأل الله للجميع التوفيق.
وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس
الحادي عشر

نصر الله

الحمدُ لله رَبِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على المبعُوثِ رحمةً للعالمين، نبيّنا محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبه أجمعين، أمَّا بَعد:

سنقف مع قول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(التوبة:٤٠)، هذه الآية جاءت بعد قوله تعالى:﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(التوبة: ٣٩)، وقد يطرأ سؤال هنا، ما علاقة هذه الآية بالآية السابقة؟.

إنَّ الآية السابقة تتحدث عن الثُّقل إلى الأرض، والرضا بالحياة الدنيا، والتأخر عن الجهاد عند الدعوة إلى النُّفرة إليه، فكأنَّ سؤالًا هنا يطرأ بعد قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، مفاده: كيف إذا يحصل للنبي ﷺ النصر بلا نصير، ولا جيش؟.

فجاء الجواب: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وسنقف مع هذه الآية وقفات عدة بحسب ما ييسّر الله عز وجل.

أولًا: قوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾، نجد هنا أن النصر نُفيَ بصيغة الفعل المضارع ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ ﴾، وهو دال على الحال أو المستقبل، وإنما كان ذلك كذلك لشحذ الهمة لنصره ﷺ في ذلك الموقف، أو ما يجد في المستقبل من مواقف، وعلى المؤمنين بناءً على ذلك أن ينصروا رسول الله ﷺ في كل وقت، وفي كل مكان، بكل صور النصر الممكنة، ولو تقاعسوا عن ذلك فنصره ﷺ حاصل من ربِّه؛ لذا جاء بالماضي ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾ والماضي بدلالة المضي ودخول قد عليه يدل على مزيد تحقق، كما أن في ذكر لفظ الجلالة ﴿ ٱللَّهُ ﴾ هنا، دون غيره من الأسماء الحسنى مالا يخفى من تربية المهابة في النفوس، وتقوية حكم النصر المذكور، وقد اختصرت هذه الجملة ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾ كل صور النصر ومستوياته ومراتبه وأنواعه، كما اختصرت الحكم في مسيرته ﷺ المُقبلة، فهو منصورٌ من خالق الكون، وهذا يعني أنه ﷺ سيبلغ ما أراد الله له من النصر والتمكين، مهما تنوعت العوائق وعظمت.

ومن اللطائف الدالة على جلالة قدره ﷺ عند ربِّه أن الله ﷻ قال في شأنه: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ ﴾ دون ذكرٍ سابق لمرجع الضمير في قوله: ﴿تَنصُرُوهُ ﴾ مع أنه معلوم أن المقصود به رسول الله ﷺ، ولعل سرَّ هذا أن المقام يدل على ذلك، فليس غيره ﷺ حريًا بمثل هذا النصر، وهو وحده عليه الصلاة والسلام الذي يصدق عليه هذا الوصف الدقيق من الإخراج مع قلة العدد والأعوان، لذا كانت الإشارة إليه في هذا الموقف بالذات مغنيةً عن كل ذكر، وكانت هذه الإيماءة أبلغَ من كل تصريح، وهي من مزيد مدحه والثناء عليه ﷺ.

وذكر أبي بكر ؓ بالصفة نفسها دون سابق ذكر لاسمه في قوله ﷻ: ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ ﴾، والمقصود بذلك أبو بكر ؓ، فيه رفع لشأن أبي بكر الصديق ؓ، وتمجيدٌ لمقام صحبته للمصطفى ﷺ، فقد عرّفه الله عز وجل في هذا

المقام الشريف بالصُحبة لنبيه، وفي جمعه مع نبي الرحمة في الضمير في قوله: ﴿هُمَا﴾ مزيد تشريف لا يُنكر.

ثانيًا: في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾، نجد أنَّ الظرف (إذ) يتعلق بالفعل قبله ﴿نَصَرَهُ﴾، والمعنى: نصره الله عز وجل وقت إخراج الذين كفروا له، وهذا يشعر بعظم حفظ الله لأوليائه، ومعيته لهم وقت الشدائد والمحن، وإسناد الإخراج للذين كفروا؛ لأنهم هم المتسببون في ذلك، حيث دبروا ذلك أكثر من مرة، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾(الأنفال:٣٠)، وهم مع هذا كانوا يخشون من خروجه، لذا دبّروا مكيدة قتله، وقد أخزاهم الله ورد كيدهم، ولكن يبقى أنهم هم السبب في خروجه ﷺ بسبب كيدهم له، وتآمرهم عليه سرًا وجهرًا، ومضايقتهم له في الدعوة، وإيذاء أصحابه وتعذيبهم.

ثالثًا: تعريفهم بالاسم الموصول ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ للإشعار بعراقتهم في الكفر، وليبان ذمهم بهذا الوصف (الكفر)، حيث إنه وصفهم الذي به يُعرفون، ولإيضاح شناعة جرمهم، إذ كيف يُخرِجُون من أرضهم نبيًا مرسلًا من ربه يدعوهم إلى الخير؟!

وفي التعبير بالإخراج دليلٌ على أنَّ تلك الطغمة(١) الكافرة ضاقت به ﷺ وبدعوته ذرعًا، وهذا هو شأن أعداء الحق، لا يأنسون لصوته، ولا يرتاحون لمن يدعو إليه، والسبيل عندهم والحل لديهم هو القتل، أو الإخراج، أو السجن؛ كما جاء في الأوصاف الثلاثة السابقة.

رابعًا: قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ هذا التعبير يُراد منه أنَّه أحد الاثنين، مثل قولهم: ثالث ثلاثة، فلا يعني هذا أنهم أربعة، بل هو واحد من الثلاثة، ومثل هذا التعبير

(١) أي: أوغادُ الناس.

لا تُعتَبر فيه الأولية، ولا الأولوية؛ لأنَّ كلًا منهما ثانٍ للآخر، وفي ظني أن التعبير جاء على هذا النظم الكريم للإشعار بقلة العدد، لتظهر نصرة الله ﷻ لنبيه ﷺ في أوضح صورها، إنهما اثنان فقط، فلا عُدَّة، ولا عدد، ولا قوة، ولا منعة، ومع هذا كان النصر لهما؛ لأن الله معهما، وإذا كان النصر قد حصل له ﷺ بهذه المثابة من قلّة الناصر؛ فنصره بعد ذلك أظهر وأعظم، وفي هذا بشارة له ﷺ ولأمته بالظهور والمنعة، وفي ذلك أيضًا درسٌ للأمة كلها بأن التعويل على القوى المادية، والأرقام العددية، وكثرة الأتباع، أو نوع السلاح؛ ليس من يقينيات المؤمنين بالله، المتوكلين عليه.

خامسًا: ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ التنصيص هنا على وقت القول في قوله تعالى: ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾، وتحديد مكانه وهو الغار، وبيان أنهما جميعًا فيه في قوله: ﴿إِذْ هُمَا﴾، كل ذلك لتهيئة الجو لهذا القول الواثق من النبي ﷺ ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، فرغم أن كل المقومات تدل على الضعف، والحاجة، بحكم المقاييس البشرية، فكلمة (هما) تدل على القلة، والغار يدل على عدم النصرة، وعدم الملجأ، فهو ليس بيتًا ولا حصنًا، ومع هذا كله يقول النبي ﷺ في هذه اللحظة، وفي هذا الخطاب يقول لصاحبه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

سادسًا: نلحظ في هذا الخطاب الرقيق في قول النبي ﷺ لصاحبه ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ ما يدل على رحمة هذا النبي الكريم برفيق دربه، وهو أبو بكر ﷺ، وذكر الصحبة لأبي بكر هنا، وتعريفه بها، إبرازٌ لمنزلته ومكانته ﷺ، وبيانٌ لأثره في نصرة هذا الدين في أول عهده، فالتعبير بالمضارع في قوله: ﴿يَقُولُ﴾، مع أنَّ القول قد سبق ومضى؛ للدلالة على التكرار المستفاد من بعض الروايات، ولاستحضار الصورة كاملة، ليشعر المخاطب والقارئ بما فيها من عظمةٍ وشأن.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس
الثاني عشر

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾

الحمدُ لله رَبِّ العالمينِ، والصلاةُ والسلامُ على المبعُوثِ رحمةً للعالمينِ، نبيّنا محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبه أجمعين، أمَّا بَعد:

سبق أن تحدثنا عن بعض دلالات قول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾(التوبة:٤٠)، ووصلنا إلى قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، وهي اللفتة السادسة.

أما اللفتة السابعة في هذا المجال فهي ما يمكن أن نجده في الظرف الوارد في قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ﴾، فإننا لو تأملنا لوجدنا هذا الظرف (إذ) قد تكرر في هذه الآية في ثلاث مواضع، مبدلًا بعضها من بعض، وبه تتجلى البلاغة، ومن خلاله يظهر تأييد الله عز وجل لرسوله ﷺ أوضح ظهور، فهو ﷻ يذكرهم بوقت خروجه ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ﴾، وما تبعه من الظلم والعنت والمشقة، وبوقت لجوئه ﷺ مع صاحبه إلى الغار في الجبل ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾، لا يملكان شيئًا من أسباب القوة المادية، وبوقت تصبيره لصاحبه ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ﴾، فهو الذي يثبت صاحبه لا أنه يتثبت به، وقد كان المراد تذكير المخاطبين بهذه الأوقات والأحوال الثلاثة، بدليل تقدير فعل (اذكر) قبل الظرف (إذ) بيانًا بتعريفهم بغناه عن نفرهم معه، وإظهارًا عن استغنائه عن كل أحد بقدرة الله وعزته ومعيته.

ثامنًا: قوله تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ ينهى فيه المصطفى ﷺ صاحبه أبا بكر عن الحزن الذي لمحه في محيَّاه، وعرفه من نبرة كلامه، وجزعه وخوفه على رسول الله ﷺ

من أن يصيبه مكروه، حتى قال: «يا رسول الله لو أنَّ أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه» فيصبِّره النبي ﷺ بيقين ويقول: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟، لا تحزن إنَّ الله معنا»، والنهي عن الحزن دون الخوف لأنَّ الحزن هو تألم النفس مما وقع، والنهي عنه يستلزم النهي عن الخوف مما يُتوقع، ويظهر لي أنَّ الحزن في مثل هذه المواقع هو مِنْ أخطر المؤثرات على قوة الإنسان وعطائه، لذا نهاه ﷺ عن ذلك في مثل هذا الوقت وهذا الموقف، مع أنَّ الموقف لو قيس بالمقاييس المادية لأوجب انهيارًا؛ لا حزنًا فقط.

تاسعًا: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، (إنَّ) هنا تفسيرية، أي: لأنَّ الله معنا، وهذه المعية المذكورة هنا هي أعلى من المعية العامة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾(النحل: ١٢٧، ١٢٨)، والفرق بينهما أن المعية في سورة النحل لجماعة المتقين المُجتنبين لما يجب تركه، وللمحسنين لما يجب فعله، فهي معللة بوصف مشتق هو مقتضى سنة الله في نصرة مَنْ هذا شأنه، أمَّا هاهنا فالمعية له ﷺ ولصاحبه دون قيد موجب لتلك المعية، مثل ما جاء مع موسى عليه السلام وأخيه هارون ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾(طه:٤٦).

عاشرًا: العجيب هنا أنَّ النبي ﷺ نهى أبا بكر عن الحزن دون الخوف، والله ﷻ نهى موسى وأخاه عن الخوف دون الحزن؛ والسر في ذلك – والله أعلم – أنَّ ما حصل مع النبي ﷺ هو أمرٌ واقعٌ يعايشه هو وصاحبه، وهذا يوجب الحزن؛ لأنَّ الحزن: تألم النفس من أمر سابقٍ أو واقع، لا من أمر متوقع، أما ما جاء في شأن موسى عليه السلام مع أخيه من تهديد فرعون وبطشه فهو أمرٌ متوقع لا واقع، وهذا يناسبه النهي عن الخوف؛ لأن الخوف: انفعال النفس من أمر متوقع.

الحادي عشر:قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾، بالتأمل في هذا

المقطع يظهر لنا أنَّ الإنسان يحتاج-دائمًا-إلى تأييد معنوي ومادي حتى يتم له التوازن المطلوب، فكانت السكينة هنا نصرًا نفسانيًا، والتأييد بالجنود نصرًا ماديًا، والسكينة هي اطمئنان النفس، والتأييد هو التقوية، وهذا يدل على مدى أهمية الجانب المعنوي في المعركة، وضرورة العناية به للجنود، فإنَّ الجُند المحبطين الخائفين القلقين لا يمكن أَنْ يردعوا عدوًا، ولا أنْ يحافظوا على ما استُحفِظوا عليه، ومع أنَّه حصل خلاف بين المفسرين في معاد الضمير في قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِ﴾، أهو للنبي ﷺ أم لأبي بكر؟، إلاَّ أنَّ الذي يظهر وتؤيده الأحداث أنَّه للنبي ﷺ؛ لأنَّ الآيات كلها مُساقة لهذا الغرض، ولا يطعن في حقه ﷺ أنَّ السكينة نزلت عليه؛ لأنَّ هذا لا يلزم منه بالضرورة أنَّه خاف أو حزن، فقد عرف الداني والقاصي شجاعته ﷺ وإقدامه، وإنْ حصل منه خوف أو حزن فهو بشر، وذلك الحزن والخوف إما كان على أمته، وعلى هذا يكون قول النبي ﷺ لأبي بكر هو أثر من آثار تلك السكينة التي أنزلها الله عليه، وتقدير الكلام: فقد نصره الله، فأنزل عليه السكينة، وأيّده بجنود لم تروها، حينما أخرجه الذين كفروا، وحين كان في الغار، وحين قال لصاحبه لا تحزن، فتكون كل هذه الظروف (إذ) متعلقة بنصَر، وإنما جاء النظم الكريم على هذه الصورة من التقديم والتأخير للمبادأة بالدلالة على أن النصر حاصل في أزمان وأحوال ما كان النصر ليحصل فيها عادة، ولكنه حصل له خصوصًا ﷺ تأييدًا من الله، وهذا أظهر في بيان شرفه ومكانته ﷺ.

وفي التعبير عن حلول السكينة في قلبه بإنزالها عليه؛ إشارة أن مصدرها من عُلو، وأنها من العلي القدير الذي أمده، وليست هي من القوى البشرية المادية الأرضية.

الثاني عشر: في قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾، تنكير كلمة (جنود) للتهويل والتكثير، والوصف في قوله: ﴿لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ إظهارٌ للقوة الخارقة غير المألوفة للمخاطبين، وإيماءٌ لهم بأن هناك من ينصره ومن يؤيده إذا تركتم نصره والنفير معه.

الثالث عشر: في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ التعبير بالجعل المشعر بالتحول والصيرورة إلى أمرٍ آخر يشير إلى أنَّ شأن المشركين قبل الإسلام كان عاليًا قويًا؛ لأنهم أصحابُ عدد ورأي، فلما شاقوا الله ورسوله انقلب أمرهم، فكانت كلمتهم هي السفلى، سواء كان المراد بها كلمة الشرك، أم شأنهم وحالهم وحُكمهم.

الرابع عشر: قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾ لم يذكر مع كلمة الله الجعل، لأنَّ العُلو هو صفتها، وشأنها الذي لا تتحول عنه، فلم تكن يومًا على حال لتكون الآن على حالٍ آخر، لذا جاءت الكلمة مرفوعة؛ لأنَّ الجملة مُستأنفة، تجري مجرى المثل في ثبوتها وصيرورتها، وضمير الفصل (هي) للدلالة على حصر العلو في هذه الكلمة، دون كلمة (الكافرين)، فثبت بهذا أن العلو محصور في دين الله، وأن المهانة والدونية لغيره، وفي هذا استنهاض لهمم المسلمين، فمهما حصل لهم من ضعف فيجب ألا يرضوا بالدونية والحقارة؛ لأنَّ الله ﷻ قال لهم: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾(آل عمران:١٣٩)؛ ولأنَّ هذا الوصف، وهذا التوجيه؛ جاء في أحلك الظروف، وأصعبها، وأقلها في العتاد والعدد، فعزة المؤمن في دينه، لا في ماله ومادياته، وياله من درس ما أعمقه، تلقَّاه المؤمنون وهم يغالبون النفس يوم دعى المصطفى ﷺ لغزوة العسرة تبوك، على بعدٍ في المشقةِ، وصعوبةٍ في الطريقِ، وطيبٍ في المقامِ، إنَّه درس أظهر الإيمان، وكشف عوار المنافقين الذين لا يثقون إلا بالماديات، ولا يناقشون إلا من خلالها، ولا يؤمنون إلا بها؛ لأنهم لا يؤمنون بربِّ الكون، ولا يثقون بنصره، بل إنهم كخُشبٍ مسندة، لا نفع فيها.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس
الثالث عشر

﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

حديثنا اليوم بمشيئة الله تعالى سيكون عن آية عظيمة تحدثت عن قصة عظيمة في القرآن، وهي ما حصل مع يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز في قصة المراودة المشهورة، وسنقف مع آية واحد في هذا المجال، وهو قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(يوسف:٢٣).

نبدأ بعدة وقفات مع هذه الآية الكريمة، ومع هذا الحدث.

أولًا: قال الله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾ بدأت الآية العظيمة بالفعل الماضي ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾، وهو مشعر بتحقق ذلك الحدث وهو المراودة، أو سَبْق وقوعه، ويبدو أن امرأة العزيز قد بذلت قصارى جهدها في التحايل لتحقيق مرادها السيّئ، لأن المراودة هي الملاطفة والرفق في الطلب، وفي المراودة معنًا آخر وهو المنازعة؛ بأن يكون لكل منهما مقصد مختلف، وهذا مصور للواقع تمامًا، فهو عليه السلام يريد العفاف وهي تريد الفاحشة، وهذه الكلمة بصيغتها ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾ تبيّن حكاية طويلة تشير إلى أن هذه المرأة جعلت تعترض يوسف عليه السلام بألوانٍ من أنوثتها لونٍ بعد لون، ذاهبةً راجعةً؛ لأن الكلمة مأخوذة من رودان الإبل في مشيتها؛ تذهب وتجيء في رفق، وهذا يصّور حيرة هذه المرأة واضطرابها في محاولتها أن تنفذ إلى غايتها.

ثانيًا: جاء تعريف المرأة المعنيّة بالقول هنا بالموصول، فقال ﷻ: ﴿ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ دون العلم (زَليخة) أو (زُليخة)، أو دون الإضافة (امرأة العزيز)؛ وذلك لبيان أن هذا الخطاب صادرٌ من سيدته، من صاحبة البيت ومالكته، فهو عندها في بيتها وليس العكس، وهذا يعني إضافة إلى ما سبق من معنى المراودة أن الخطاب سيكون لطيفًا رقيقًا؛ لأنها رغم منزلتها من السيادة التي توجب القوة والسلطة، إلا أنها أصبحت بسبب حبها له في منزلة التابع الذليل الذي يطمع في تحقيق طلبه بلطيف القول وجميل العبارة بدليل قولها في مهانة: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾.

كما أن في العدول عن التصريح باسمها: المحافظة على الستر ما أمكن، واستهجان ذكره في هذا الموضع، وفي قوله تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ بيان آخر لجو هذا الخطاب مما يوحي بالأمان والطمأنينة، فهو ليس إغلاقًا بل تغليقًا، فهي قامت به بنفسها بدليل إسناد التغليق إليها؛ إظهارًا للحياطةونشرًا للأمان، وقد قيل: إن (غلَّق) للكثير، و(أغلَق) تكون للكثير وللقليل، والصياغة كما نرى تقدم الضمان اللازم للموقف ليكون الخطاب هادئًا رقيقًا كما أرادت؛ لأن خطاب الخوف والتوجس لا يكون بهذه المثابة، ولم يقل ﷻ: أغلقت؛ لما تشعر به صيغة التشديد من اهتمامها الشديد بأمر التغليق؛ لذا فقد أسرعت في دورة شديدة وهي مهتاجة، تتخيل القفل الواحد أقفالًا عدة! وتجري من باب إلى باب، وتضطرب يدها؛ كأنها تحاول سد الأبواب لا إغلاقها فقط.

ثالثا: قالت: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ من خلال هذا البيان الذي أوردناه نعلم الآن الجو الذي صدر فيه هذا الخطاب منها، إنه يتلخص في كلمتين ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، وهو أول ما قالته ليوسف عليه السلام، وقد اختصرت بهما المراد، وأوضحت فيهما مقصودها بكل صراحة، فالموقف وملابساته ومشاهداته يغني عن الخطاب والتفصيل فيه، فكأن المقصود هو لفت النظر إلى أنَّ الاعتماد لم يكن على الخطاب بل هو على الملابسات المحيطة به، لذا جاء موجزًا مصرحًا بالمراد في صورة فجّة تتعارض مع فضيلة العفاف، ورعاية العهد للزوج.

رابعًا: جاء جواب يوسف عليه السلام سريعًا حاملًا كل صور النظافة والعفة ورعاية العهد؛ فقال عليه السلام: (معاذَ الله)، وكلمة (معاذ) مصدر أضيف إلى اسم الجلالة (الله)، ومعناه: أعوذ عوذًا بالله، أي: أعتصم به مما تحاولين، وهذا يدل على شدة الاختبار الذي وقع فيه يوسف عليه السلام، وسرعة رده عليه السلام، واستعانته بربه؛ منهج يجب على المؤمن اتباعه عند وقوعه في امتحانات الفتن، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾ في مجيء (إنَّ) في بداية هذه الجملة تعليل لما أفاده قوله تعالى: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ من الامتناع والاعتصام منها بالله المقتضي أنَّ الله أمر بذلك الاعتصام، وضمير (إنَّه) يجوز أنْ يعودَ إلى اسم الجلالة ويكون (ربي) بمعنى: خالقي، ويجوز أن يعود إلى معلومٍ من المقام، وهو زوجها الذي لا يرضى بأنْ يمسها غيره، فهو معلومٌ بدلالة العرف، ويكون (ربي) هنا بمعنى: سيدي ومالكي، وأيًا ما كان فالكلام تعليلٌ لامتناعه وتعريض بها في خيانة عهدها وزوجها، وذكر وصف (الرب) على الاحتمالين في قوله تعالى: ﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾ لما يؤذن به من وجوب طاعته وشكره على نعمة الإيجاد بالنسبة إلى الله، ونعمة التربية بالنسبة لمولاه العزيز، وهذا-كما نرى-يتنافى في سماء الأخلاق مع الخيانة، والعجيب أنَّ الناس قد يرون أنَّ خيانة مَنْ أحسن إليهم من البشر عظيمة من العظائم، ويكثر اللُّوام فيها، بينما لا نجد مثل ذلك في خيانة العبد لعهد ربه بفعل معاصيه والاعتداء على حدوده.

خامسًا: في ختم يوسف عليه السلام لكلامه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تعليل ثانٍ لنفوره عليه السلام من هذه الفعلة الشنيعة، وفي ذكره لصفة الظلم هنا خصوصًا دون غيرها للإيماء بأنَّ ما حصل من تلك المرأة، وما تطلبه من يوسف عليه السلام هو نوع من الظلم؛ لأنه مِنْ وضعِ الأمر في غير موضعه، وهذا النوع من الظلم لا يعيره الناس اهتمامًا غالبًا، ولهذا لابد من التنبُّه إلى أنَّ الظلم أنواع، منها: الشرك، ومنها: مثلما حصل في هذه القصة.

سادسًا: بقيَ أن نشير إلى قضيةٍ مهمة، وهي أنَّ هذه الفعلة الشنيعة التي تنازلت فيها امرأة العزيز عن مكانتها، وسيادتها، وعفتها، ووفائها لزوجها؛ قد جاءت بسبب الاختلاط المحرّم، ولو أننا تأملنا هذا الأمر في هذه القصة لوجدنا أمرًا عجبًا، فهذه المرأة كانت كبيرة السن، يعني أنها تقدمت في السن، وفات أوان وجود الولد بدليل أنَّها كانت تأمل الولد قبل مجيء يوسف عليه السلام، ولكن لم يحصل لها ذلك، وهذا يعني أنه قد فات أوان وجود الولد بالنسبة لها، ويوسف عليه السلام لَمّا قَدِم عليها كان صغيرًا، بدليل أنّه كان يرتع ويلعب، ولا شك أنه بقيَ عندها، وتربّى في حجرها حتى شبّ، فلما اكتمل في شبابه حصل ما حصل، وهي بلا شك كانت تناديه في هذه السن بلفظ البُنوة، ومن المحتمل أنه كان يناديها بلفظ الأُمومة لأنّه تربى في حجرها، ومع هذا كله لم يقف هذا الأمر أمام قوة الشهوة لديها لَمَّا توافرت أسبابها وأهمها الخلوة، والجمال، والمال، فهل نعتبر نحن بمثل هذا؟، وندرك سرَّ منع الاختلاط المحرّم في ديننا؟.

إنَّ هذا الكلام بمجمله الذي ورد في هذه الآية الكريمة لهوَ عبرةٌ عظيمة فيما يخص العفاف والتقوى، وفيما يخص الاعتصام بالله واللجوء إليه عند المحن، كما فيه بيانٌ لعظم خُلق الوفاء عند أصحاب الشهامة والمروءة.

أسأل الله عز وجل أن يعصمنا من الشهوة وسبلها وأسبابها، إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

جرأة في الباطل

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

وقفتنا ستكون -بإذن الله عز وجل- مع قول الحق تبارك وتعالى على لسان امرأة العزيز: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(يوسف: ٢٥)، هذا القول صادرٌ من امرأة العزيز لزوجها لَّما ألفياه لدى الباب، فخافت أن يتهمها بالفجور، هذا هو الجو الذي قيل فيه هذا القول، ولنا معه هذه الوقفات:

أولًا: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ ﴾ (ما) هنا نافية، أي: ليس جزاؤه إلا السجن، ويجوز أن تكون استفهامية، بمعنى: أي شيء جزاؤه إلا السجن، كما تقول: مَنْ في الدار إلاَّ زيد؟، وهل بين كون هذه الأداة (ما) نافيةً، أو كونها استفهامية من فرق؟.

الذي يظهر لي أن النفيَ يُشعر بجزمها بنوع العقاب، فهي تحصره فيما ذكرت؛ وكأنها تريد ألا يتجاوز الزوج ذلك، وأمَّا الاستفهام فإنها تريد به تنبيه الزوج على عظم الفاجعة فتسأله ليكون في صفها، وعلى هذا يمكن أن نقول: إن الإعجاز هنا هو مجيء هذه الأداة (ما) دالةً على الأمرين جميعًا، النفي والاستفهام، وتترك هي فهم المراد لزوجها، فكأنها تريد استثارة حفيظته على يوسف عليه السلام بالسؤال، وكذلك تضمن معايشته لها في المشكلة، ولكنها لا تترك الجواب له، بل تجزم به وتحدده له تمامًا كما يدل على ذلك القصر بـ(ما) و(إلاَّ).

ثانيًا: لعل ما ذكرناه يفسر هذه اللغة الجريئة التي نجدها من هذه المرأة، ولكن هل من سبب لهذه الجرأة، والمبادرة، وعدم التلعثم؟، وهل هذه الجرأة هي جزء آخر من خطاب هذه المرأة ليضاف إلى ما ذكر من صراحتها في قولها: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾؟، وما سيأتي بعد ذلك في السورة ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾؟، إننا نتساءل على هذه الصورة لأن المعهود في خطاب النساء هو الحشمة والاختصار والإبهام والرمز، فهل هذا خاص بخطاب المؤمنات؟، أم أن البيئة المترفة لها دورها في ذلك؟، ربما يكون ذلك.

أما عن الجرأة التي بدت عليها امرأة العزيز لحظة المفاجأة، فهذا يدل على اكتمال عقلها، وشدة مكرها، وتقدمها في السن، فقد ابتدرته بالكلام إمعانًا في البهتان بحيث لم تتلعثم، تخيّل له أنها على الحق، وأفرغت كلامها في قالب كلي ليأخذ صيغة القانون، وليكون قاعدة لا يُعرف المقصود منها، فلا يسع المخاطب إلا الإقرار بها أول الأمر، وكانت تريد بذلك ألا يشعر زوجها بأنها تهوى غير سيدها، وفي الوقت ذاته أرادت أن تخيف يوسف عليه السلام من خلال كيدها بألا يمتنع منها مرة أخرى، وقد استطاعت من خلال هذه المعادلة الصعبة المتناقضة أن توجِد خطابًا ملائمًا للموقف، والملحوظ في خطابها هذا أنه مُعتنى به ليحقق الهدف الذي ذكرناه، ليحقق هدفها من جهة في التبرئة لذاتها، ولتخويف يوسف عليه السلام من جهة أخرى، وما كان له أن يكون كذلك (أي: الخطاب) مع قلة كلماته واختصارها إلاّ أنّه كان معدًا إعدادًا جيدًا، وهذا يدل على أن جوابها كان حاضرًا، إذ كانت تعيش في هذه المحنة أيامًا وليالي، وكانت تفكّر فيها وتقلبها على جميع وجوهها واحتمالاتها، فلما وقع الأمر وجدت الجواب الذي أعدته، وهكذا تتهم، وتحكم، وتقترح، ولا تدع لزوجها فرصة للتفكير فيما ينبغي أن يواجه به

هذا الموقف، فهاهو ذا الحل حاضرٌ بين يديه لا يحتاج منه إلى تفكير، بل إلى إقرار فقط، وهنا تتبدى المرأة المكتملة فتجد الجواب حاضرًا على السؤال الذي يهتف به هذا المنظر المريب، وهو سؤالٌ متوقع في مثل هذا الموقف.

ثالثًا: نلحظ أن الجزاء المقترح منها قد جاء عامًّا لم تصرح فيه بيوسف عليه السلام، بل قالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾، وهي بهذا قصدت العموم، وأن كل من أراد بأهلك سوءً فحقه أنْ يُسجن، أو عذاب أليم؛ لأنَّ ذلك أبلغ فيما قصدته من تخويف يوسف عليه السلام، وأبعد عن تهمة العلاقة مع يوسف عليه السلام، وفي هذا الإبهام تهويلٌ لشأن الجزاء المذكور، حيث أخرجته هذه المرأة على شكل قانون مطّرد في حق كل أحد كائنًا مَنْ كان، مع يوسف عليه السلام، أو مع غيره، كما أنَّ في هذا التعميم الذي أداته الاسم الموصول العام (مَنْ) تركيزًا على الفعل لا على عين الفاعل، فكأنه يلحظ من هذا أنها لا تريد أن يصيب معشوقها مكروه مقصود يؤذيه هو بعينه، لذا أخفت اسمه عند لحظة المواجهة، كما أن في ذلك تخفيفًا من ردِّ يوسف عليها، وهو أمرٌ متوقع؛ إذ لو أشارت إليه، أو نسبت الأمر إليه صراحة فلربما حصل في ردِّه أمرٌ آخر، وبهذا يتضح أن هذا الخطاب قد أدى مطلبه على أبلغ وجه وأتمه.

رابعًا: في قولها: ﴿أَرَادَ﴾ بالفعل الماضي للتدليل على وقوع ذلك وتحققه، هذا من جهة الصياغة، أمَّا من جهة مدلول اللفظة ففيه إشارة إلى أن الأمر لم يجاوز حد الرغبة والإرادة، أي أنه لم يصل للفعل، وفي هذا تخفيف من حدة غضب زوجها.

خامسًا: قولها: (أهلك) ﴿مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ﴾ استعطاف له بإضافة الأهل إليه، فكان ذكر نفسها بعنوان أهلية العزيز إعظام للخطب، وإغراء له على تحقيق ما تتوخاه بحكم

الغضب والحميّة، ونحن نلمح في قولها: (بأهلك)، بدلًا من قولها: (بي)، أنها أرادت أن تضيف نفسها إلى العزيز؛ فتثير عاطفته نحوها، على حين أنها تغريه بهذا الذي اعتدى على العزيز في أهله.

سادسًا: في اختيار الأهل دون الزوجة، أي لم تقل: بزوجك؛ من دلالة الاستقرار والراحة مالا يخفى، وكل هذا مقصود في الخطاب الذي تريد به نصرة زوجها لها، وأيضًا تريد ترويض خصمها، فهي هنا تعالج مجموعة مشاعر مختلفة، بين استغراب، وسؤال، ورهبة، وعشق، وخوف، كل ذلك استطاعت استيعابه بخطاب شامل يدل على قدرة فائقة في ذلك.

سابعًا: في قولها: (سوءًا) تعميمٌ آخر، إذ لم تحدد المقصود، لكنها حكمت عليه بذلك، وهي بهذا التعميم تجعل الحكم لكلامها هي؛ لأنها الأعرف بتفصيل تلك التعميمات التي أحاطت زوجها بها في هذا الخطاب.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

رد الباطل

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

ما زال حديثنا عن خطاب امرأة العزيز عندما واجهت يوسف عليه السلام، وعندما ألفيا سيِّدَها لدى الباب ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(يوسف: ٢٥)، وقد كانت لنا وقفات مع ﴿مَا ﴾ أهيَ نافية، أم استفهامية؟، وكانت لنا وقفات مع قوة هذا الخطاب، وجزالته، وعدم تلعثم هذه المرأة في حديثها في تلك اللحظة المحرجة، وأيضًا تحدثنا عن لفظ الإرادة في قولها: ﴿أَرَادَ ﴾، ودلالة كلمة (أهل)، ودلالة الإضافة إلى ضميره (أهلك)، وتنكير كلمة ﴿سُوٓءًا ﴾ وذكرها، وما يتعلق بذلك من التعميمات الكثيرة في كلامها، وقد وصلنا إلى الملمح السابع.

وهنا سنتحدث عن الملمح الثامن: وهو عما يتعلق باقتراح العلاج، وما يتعلق باقتراح التأديب المطلوب فيمن حصل منه هذا الأمر فقالت: ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، هذا هو اختيارها أن يسجن مَنْ حصل منه ذلك، أو يُعَذَّب، والملحوظ في هذا الخطاب أنه جاء بعد استثناء، وهذا يعني أنها جعلت كلامها في محيط الاستثناء حتى تقترح ما تشاء، بعدما أشعرت زوجها بعظم الفاجعة، ثم إننا نلحظ هنا أن السجن جاء بـ(أن) والفعل ﴿أَن يُسْجَنَ ﴾ بينما العذاب جاء صريحًا موصوفًا ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، ولم يكن (أن يعذَّب)، فما سر ذلك يا ترى؟

جاءت مخالفة التعبير بين (أن يسجن) و(عذب) دون أن يقال: (إلا السجن أو عذاب)؛ لأن لفظ السِجن يطلق على البيت الذي يوضع فيه المسجون، ويطلق على مصدر (سَجَنَ)، فقوله: أن يُسجن أوضح في تسلط معنى الفعل عليه، فحتى لا يتبادر إلى الذهن الموضع إذا قيل: السجن؛ ذُكر الفعل مسبوقًا بـ(أن) ليتحقق معنى الفعل، وليُبيِّن أن المُراد الفعل ذاته، وما يترتب على هذا الفعل، الذي هو المصدر؛ من تعرضٍ لهذا المسجون لما يكون في السجن؛ لأنه الذي فيه النكاية، وهي أرادت تخويفه، لذا أخرجت الكلام على هذه الصورة من المخالفة، فإنها أرادت أنْ يتمَّ عليه فعلُ السَجن، لا أنْ يوضع في السِجن فقط، كما أنها وصفت العذاب بالأليم، أي: الموجع؛ إتمامًا لترهيبها له عليه السلام، ولإظهارها الحرص على شرفها وشرف زوجها، هذا وجه، وهناك وجه آخر يرتبط بدلالة الفعل ودلالة الاسم، ففي الاسم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إشعار بالمواصلة والثبات، وهذا آلَمُ، أي: أشد إيلامًا؛ لذا لم تبدأ به، بينما بدأت ﴿أَن يُسْجَنَ﴾، وهو تعبير بالفعل يشعر بعدم الاستمرار، والمراد: أن يُسجن يومًا أو أقل، على سبيل التخفيف، فأما السَجْن الدائم فلا يُعبّر عنه بهذه العبارة، بل يقال: يجب أن يجعل من المسجونين، ألا ترى إلى فرعون كيف قال حين هدد موسى عليه السلام: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾(الشعراء:٢٩)، فعبّر بالاسم.

ومما يشعر بحبها له أنها لم تعيّن العقوبة، بل جعلت الأمر خيارًا، واستعملت (أو) دون (الواو) حتى لا تجمع عليه عقابين، وحتى تُبقي مجالًا للاختيار، وهذا الاختيار يحتاج إلى وقتٍ للبتِّ فيه، وقد أرادت ذلك، بينما نجدها بعد انتصارها في معركتها مع النساء تقول: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ فأتت بـ(الواو)،

وهذه لغة أخرى غير معهودة منها من قبل؛ لأنها الآن مشروكة في حُب يوسف عليه السلام، فتهديدها له هنا حقيقي.

تاسعًا: نلحظ أنها بدأت بالسَجن أولًا، ثم ذكرت العذاب ثانيًا، وإنما فعلت ذلك إبقاءً على محبوبها، ثم ترقّت إلى العذاب الأليم، وقولها: ﴿إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ يدل على عظم موقع السجن من ذوي الأقدار والمروءات؛ حيث قرنته بالعذاب الأليم.

عاشرًا: هذا الأمر الذي ذكرناه من التعميم في غير موقع، وهذا الهجوم بالاتهام، واقتراح الحلول، وإيهام الأسماع؛ يناسب حال تلك المرأة المذنبة التي تخاف على نفسها من جهة، وعلى معشوقها من جهة أخرى، أمَّا يوسف عليه السلام فقد جاء ردُّه يحمل نمطًا مختلفًا من الخطاب، فقال عليه السلام: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِي﴾ إنها كلمات قليلة، ولكنها بيّنت المقصود، ودافع بها عن نفسه عليه السلام، وأجاب بها عليه السلام عن اتهام هذه المرأة، فقال: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِي﴾ في كلمات قليلة، ولو نظرنا في هذه الكلمات لوجدنا أنَّه بدأها عليه السلام بالضمير، فعرّف هذه المرأة بقوله: ﴿هِيَ﴾، مع أن المقصود: المرأة الواقفة أمامه، و(هي)-كما هو معلوم-ضمير للغائبة المفردة، لكنه هنا عبّر به عن الحاضر، فما سر ذلك؟.

قد يكون سبب هذا الخروج عن المقتضى بألاَّ يقول لها: أنتِ، أو هذه؛ هو انصرافه عنها، وعدم اكتراثه بوجودها؛ لأنها في نظره لا تستحق التقدير، ولا الذكر بعد ما فعلته من خيانة زوجها، ومحاولتها بيع عِرْضِها، واتهامها لبرئ، فجعلها في حُكم الغائبة وإن كانت موجودة، أو قد يكون سبب ذلك ما جبل الله عليه الأنبياء -

صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين–من حُسن الأدب ولُطف القول، فهي لما كَنَّت عن نفسها بذلك فقالت: ﴿بِأَهْلِكَ﴾ ولم تقل: (بي) بدلًا من (بأهلك)، كنّى هو عليه السلام عنها بضمير الغيبة فقال: (هِيَ)، ولم يخاطبها بـ(أنتِ راودتني)، ولا أشار إليها بـ(هذه راودتني)، وكل هذا على سبيل الأدب في الألفاظ، والاستحياء في الخطاب؛ الذي يليق بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فأبرز الضمير في صورة ضمير الغائب تأدبًا مع العزيز وحياءً منه، مع أنه عليه السلام استطاع أن يبيّن في هذه الكلمة على اختصارها الخطأ الذي حصل من هذه المرأة، وردّ التهمة التي كانت عليه، فصرّح بالسوء الذي أخفته هي في خطابها، وهكذا يختلف نمط الخطاب عندما يختلف هدفه، فهدفها هي جاء بخطاب معيّن، وهدفه هو عليه السلام في رد التُهمة جاء بخطاب آخر، وواضحٌ من الخطابين أن خطابها اشتمل على الإبهام والتعميم، بينما خطابه هو عليه الصلاة والسلام جاء واضحًا بيّنًا؛ لأنه في رد تُهمة، وهكذا يجب أن يكون الإنسان يُخفي بعض الأمور التي لا يتناسب ذكرها مثل ذكرها هي بضمير الغيبة (هي)، لكنه لا يخفي رد التُهمة عن نفسه بل يقول: ﴿رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس
السادس عشر

من مجالس النساء

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

سنقف بإذن الله مع قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾(يوسف:٣٠).

هذا خطاب جماعي لمجموعة نساء، لذا هو يجمع كل صفاتهن، خطابٌ جاء في جوِّ المكر والمكيدة، وما تمليه الغيرة بين النساء، وحب نقل الأخبار، والتعليق عليها، وسنقف مع هذا الكيد وقفات نُبينه من خلال مدلول هذه الكلمات والعبارات، وأيضًا التراكيب.

أولًا: في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ﴾ كلمة (نسوة) جمع تكسير للقلّة، وهذا يدل على قلّة النساء اللاتي تحدثن بهذا الخبر، وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ ﴾ هذا القيد ربما يكون مشعرًا باتساع الخبر، حتى إنه بدأ من أطرافها وانتهى إلى وسطها، أو أنه بدأ من وسطها وبدأ يشيع في أطرافها، وقد يكون المراد قلّةَ القائلات، وانحصاره في المدينة، حيث لم يبلغ أطرافها، وقد يكون المراد من القيد (في المدينة) أن الوصف المقصود المؤلم لتلك المرأة، والكلام الذي تعمل له حسابًا؛ وما كان يصدر من الحضريات القصريات، أي: اللائي يسكنَّ في القصور، أما البدويات فإن مثل امرأة العزيز لا تلتفت إلى كلامهن؛ لأنه لا يغيظها تلك الإغاظة، وربما تكون كل هذه المعاني مقصودة.

ثانيًا: قولهن: ﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ﴾، من خلال استعراض أحداث هذه القصة نجد أن السياق القرآني يعرض لأول مرة علاقة هذه المرأة بالعزيز، وأنها امرأة ذلك الرجل الذي اشترى يوسف، وكان من مصر، ولو تأملنا السياق القرآني الذي حدد هوية هذه المرأة لوجدناها عرّفت من قبل بالإضافة إلى الضمير في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ﴾، لكننا لم نعرف مَنْ هو ذلك الرجل؟، ثم جاء تعريفها مرة ثانية بالموصول في قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾، وفي ذلك من دلالات اللوم لها، والتبرئة لساحة يوسف ما فيه، فهي سيدته، وهو خادمٌ لديها، والبيت لها، فحقها ألا تنظر إلى مثل خادمها، لكننا إلى الآن لم نعرف مَنْ تكون، وما هي منزلتها الاجتماعية؟

كل الذي عرفناه أنها صاحبة ثراء ولا مولود لها، لما تدل عليه السياقات السابقة من ذلك، ثم يأتي التعريف الثالث لها بالإضافة إلى ضمير الغائب في (أهلك) ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ﴾، وهو تعريفٌ من نفسها لنفسها لسرٍّ يتعلق بمحاولتها صرف نصرة زوجها إليها، ثم يأتي بعد هذا التعريف الرابع، وقد حصل لها من مثيلاتها الكائدات، وهو قولهُنَّ لها: ﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ﴾، والعزيز: هو كبير وزراء مصر، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾.

ومن جملة هذه الطرق المتنوعة في التعريف؛ فإننا نكتشف أمورًا كثيرة علمنا من خلالها أن العزيز، وزوجه لا ينجبان، فليس لديهما ابن يلتهيان به، وأنها مع مكانتها، ومكانة زوجها؛ هي التي طاردت يوسف عليه السلام وراودته عن نفسه، وأنها أيضًا صاحبة جمال؛ لأنَّ مَنْ في مثل مكانة العزيز يحرص على ذلك، فكان هذا الطريق في التعريف،

-الذي هو إضافتها إلى العزيز- هو قاصمة الظهر له، إذ كشف عوارها، وجَلَّ غامضها، فلم تجد بُدًّا من الردِّ عليهن، ومقارعة الحيلة بالحيلة، ويتمثل الكيد في هذا التعريف، أي: إضافتها إلى العزيز ﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ﴾؛ في إبراز زوجها، ومكانته، واسم وظيفتها الرفيعة، وقد قيل: أن العزيز هو الملك في كلام العرب، ولهذا قيل: إنهن صرَّحْنَ بإضافتها إلى العزيز مبالغةً في التشنيع؛ لأن النفوس أقبل لسماع ذوي الأخطار وما يجري لهم، يقول ابن القيم رحمه الله في هذا الأمر: «إنَّ هذا القول اشتمل على صورٍ من ألوان الكيد، فذكر منها قولهن: امرأة العزيز، فلم يسمينها باسمها، بل ذكرنها بالوصف الذي ينادي بقبيح فعلها بكونها ذات بعل، فصدور الفاحشة من ذات الزوج أقبح من صدورها ممن لا زوج لها، الثاني: أن زوجها عزيز مصر، ورئيسها، وكبيرها»[1]، وذلك أقبح لوقوع الفاحشة من مثلها، وقد يكون في إضافتها إلى زوجها العزيز، وتعريفها بذلك زيادة في إشاعة الخبر، وهو من مستلزمات عناية الناس بأخبار ذوي المكانة، وفي ذلك إبراز لحرص هذا النوع من النساء على هذا النوع من الخطاب الفاضح؛ الذي فيه عرض وإظهارٌ للعورات، وإلصاقٌ للتهم، بينما نجد لونًا آخر من الخطاب يتعلق بهذه القصة قد ورد في أول هذه القصة، وفي إبراز هذا النوع من الخطاب عند هذا النوع من النساء.

ثالثًا: في قولهن: ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾ نجد هنا استحضارًا لصورة الحدث المهم حتى بألفاظه، نجد المراودة مع تحوّل في المدلول، فأول ما قصّ الله الخبر قال سبحانه: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾ بالماضي، وهنا في خطاب النسوة قال سبحانه: ﴿تُرَٰوِدُ﴾ بالمضارع، مع أن الحدث واحد، ومع أن الحادث قد سبق، ومنشأ هذا التغيير في صيغة الفعل بين الخطابين

(١) انظر: إغاثة اللهفان (٢/ ١١٥)

هو مرادُ النسوة ذاتهن، فقد عبّرنَ بـ(تراود) بالمضارع الدال على أنه صار سجيةً لها، تخادعه دائمًا عن نفسها، كما تقول: زيدٌ يعطي ويمنع، أي: هذا شأنه، ولم يقلن: راودت فتاها؛ لأن ذلك يدل على حصول المراودة مرة أخرى، أو أنها قد انقضت من هذا الأمر ولم تعد إليه مرة أخرى، يقول ابن القيم رحمه الله: «أتين بفعل المراودة بصيغة المستقبل الدال على الاستمرار والوقوع حالًا ومستقبلًا، وأن هذا شأنها، ولم يقلن: راودت فتاها، وفرق بين قولك: فلان أضاف ضيفًا، وفلان يقري الضيف، ويطعم الطعام، ويحمل الكَلَّ، فإنَّ هذا يدل على أن هذا هو شأنه وعادته»[1].

رابعًا: قولهن: ﴿فَتَىٰهَا﴾ عَرَّفنَ الفتى بإضافته إليها مع أنَّ الذي اشتراه هو زوجها، وبالإمكان فصله عنها بذكر اسمه أو وصفه، فما سر هذه الإضافة؟.

يجيب عن ذلك ابن القيم رحمه الله: «بأن هذا من وجوه المكر في خطابهن، فهي العزيزة ومع ذلك تراود مملوكًا لا حرًا، وهذا أبلغ في القُبح، كما أنّه فتاها الذي في كنفها وفي بيتها، فحكمه حكمُ آل البيت»[2]، وهذا يزيد من اللوم والمؤاخذة لها.

خامسًا: في قولهن: ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾، نجد أن حرف الجر المذكور هنا هو (عن)، وهو حرف جر يفيد المجاوزة، أي: راودته مباعدةً له عن نفسه، أي: بأن يجعل نفسه لها، وهذا يعني أنهن حكمن عليها بأن مراودتها له قد بلغت مبلغًا جعلها تُقدّم كل الحيل التي تمكّنُها من الظفر بهذا المطلوب، أي: فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرجه من يديه، يحتال أن يغلبه عليه، ويأخذه منه بأي سبيل وبأية طريقة.

(١) انظر: إغاثة اللهفان (٢/ ١١٦)
(٢) انظر: إغاثة اللهفان (٢/ ١١٥)

سادسًا: قولهن: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾، (قد) هنا دخلت على فعل ماضٍ، وهي تدل على تحقق الوقوع حينئذ، وهذا يتناسب مع مرادهن في تجريب امرأة العزيز، فعندما ذكرنَ المراودة واستمراريتها كما يدل عليه المضارع ﴿تُرَاوِدُ ﴾، نبَّهنَ على علة ديمومة تلك المراودة، وهي كونه قد شغفها حبًا، والتعبير بـ﴿ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ دون غيره للإشعار بشدة تعلقها به، حتى كأنَّ حُبّها ليوسف عليه السلام قد وصل إلى شِغاف قلبها، فدخل تحته حتى غلب على قلبها، أي: إن حبه قد صار شِغَافًا لها، أي: حجابًا، وظرفًا محيطًا بها، وهذا المعنى واضح في ذكر التمييز ﴿حُبًّا ﴾، ولو أريد حصره في موضع خاص من القلب لقيل: شغفها حُبه، لكن لما كان الحب مسيطرًا على كيانها كله جاء توضيح الإجمال الوارد في الفعل (شغفها) بالتمييز (حبًا)، وبالجملة فهذا كناية عن الحُب الشديد والعشق العظيم منها له.

سابعًا: قولهن: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾، جاءت هذه الجملة خاتمة لخطاب النسوة، وقد جمعن فيها ألوانًا من التأكيدات، (إن)، واللام، والتعبير بالرؤية عن العلم، وبناء الفعل على المُسند إليه (نا)، ووصف الضلال بأنه (مبين).

ونلحظ في هذه الخاتمة كيف نسبن الاستقباح إلى أنفسهن ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا ﴾، فبنينَ الفعل على ضميرهن (إنا)، وهذا فيه من التوكيد بسبب تكرار الإسناد إلى الضمير مالا يخفى، ومعلوم أن من شأنهن مساعدة بعضهم بعضًا على الهوى، كما هو شأن الرجال،

فلما وصل الأمر إلى استقباح هذه الطبقة؛ كان ذلك دليلًا على أنه من أقبح الأمور، وأنه لولا بلوغه هذه المنزلة من السوء والاشتهار ما كان منهن إنكارٌ لذلك؛ لأن هذا الأمر هو المُنْتَقَدُ في تلك الأوصاف، لا الفعلة ذاتها.

وهكذا نجد أنَّ النسوة قد جمعْنَ لها في هذا الكلام واللوم بين العشق المفرط، والطلب المفرط، فلم تقتصد في حبها، ولا في طلبها، وبهذا تم الحديث عن ألوان المكر الواردِ في كلام هؤلاء النسوة.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الحياة الطيبة (١)

الحمدُ لله رَبِّ العالمينِ، والصلاةُ والسلامُ على المبعُوثِ رحمةً للعالمينِ، نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبه أجمعين، أمَّا بَعد:

قال الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾(النحل: ٩٧).

هذا هو طريق الحياة السعيدة الهانئة، القانعة المطمئنة، التي هي مطلب الناس أجمعين، وقد أوجزت هذه الآية مقومات هذه الحياة، ورسمت معالمها، في إيجاز معجز، مع وفاء كامل بالمعنى.

وبالتأمل نجد هذه الآية قد جاءت بين آيتين أولاهما: تتحدث عن الدنيا وحقارتها، وأنها فانية زائلة، وأن ما عند الله خير وأبقى، قال تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾(النحل، ٩٦)، وتلتها آية تتحدث عن الشيطان، وتأثيره على الإنسان وصده عن سبيل هداية القرآن، وتبين الطريق للخلاص من شره، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾(النحل، ٩٨)، وكأن موانع الحياة الطيبة تكمن في حب الدنيا ومغرياتها وشهواتها، واتباع الشيطان وشبهاته وتسويلاته، وبالسلامة من هذين المرضين تكون السعادة، والحياة الطيبة، التي جمعت هذه الآية أطرافها ورسمت للسالكين طريقها.

(١) أصل هذه الورقة كلمة ألقيت في جامع الراجحي بالرياض بعد مغرب يوم الثلاثاء ٢١/ ٤/ ١٤٢٨هـ، تعويضًا عن محاضرة لم يحضر ملقيها، بعنوان (الحياة الطيبة).

وقد اشتملت هذه الآية على مقومات الحياة الطيبة موجزةً في أمرين، هما:

العمل الصالح.

الإيمان.

وقد جاء عرض هذه المقومات على النحو التالي:

(مَنْ عمل)، (مَنْ) اسم موصول مشترك، يُلمح فيه الشرط، ويدخل في حيزه الصغير والكبير، والذكر والأنثى، والقليل والكثير، ولو قيل: (الذي) لاقتصر على الذكر الواحد، أو قيل: (التي) لكان للمؤنثة الواحدة، أو قيل: (اللذين) لكان لجماعة الذكور، أو قيل: (اللاتي) لكان لمجموع الإناث، وهكذا، فكان هذا الموصول (مَنْ) يشمل كل ذلك مع فضيلة الإيجاز، زيادة على ما فيه من خصوصية التساوي وعدم التمايز إلا بالعمل الصالح لا بالنوع، أو السن، أو العدد.

(عَمِل) التعبير هنا بالفعل الماضي، دلالة على سبق العمل لاستحقاق الحياة الطيبة، وهذا يعني أنه لابد من العمل والصبر عليه والمداومة على فعله، حتى يحسن وصف صاحبه بأنه (عمل صالحًا)، ولو قيل بالمضارع: (يعمل صالحًا)، لأفهم ذلك أن الموصوف به كان خاليا من العمل الصالح فيما مضى، وأنه سيبدأ من ساعته هذه، ويستمر.

(صالحًا) وصف لكلمة (عملًا) المحذوفة المدلول عليها بالفعل (عمل)، وفي حذف هذه الكلمة إيماء إلى أن الاهتمام متوجه إلى الصفة (صالحًا)، أكثر من الموصوف(عملا) لأن كل الناس يعملون، والعبرة ليست بالعمل، بل بكونه صالحا،لأنه هو المثمر للحياة الطيبة والمؤثر فيها.

وصلاح العمل وصف له ممن شرعه سبحانه، فلابد-إذا-أن يكون مطابقًا لما أمر به الشرع من جهتين: الإخلاص، بأن يكون لله وحده، والمتابعة: بأن يكون على هدي رسول الله ﷺ، لأنه أفهم الخلق لمراد الله عز وجل، وبهذا يكون العمل صالحًا، وبالتالي

يكون مقبولًا، ومن ثَمّ يكون سببًا في سعادة الإنسان.

﴿مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ هذا تخصيص للتعميم الوارد في (مَنْ عمل) لدخوله في عموم الاسم الموصول، وذكر الخاص بعد العام يعني الاهتمام بذلك الخاص والعناية بشأنه، فكان في ذكر (الذكر والأنثى) اهتمام بالنوع من حيث (الذكورة والأنوثة)، لأن الرجال قد يكونون أظهر حالًا من النساء في الأعمال الصالحة في الجملة، فالمرأة أحيانًا لا تصوم ولا تصلي، وقد لا يكون مجال العمل الصالح أمامها متاحا بالقدر الذي يكون للرجل، وخصوصا في مثل: الجهاد والعلم والكسب، لهذا نُص هنا على النوع لبيان أن الأعمال المطلوبة منها كافية للحصول على الحياة الطيبة إذا قامت بها.

كما أن دخول (مِنْ) الجارة كما في قوله: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾، فيه عناية بأبعاض هذين النوعين (الذكور والإناث) أي: أي أحد منهم، وفيه أيضا بيان أن مصدر ومبدأ العمل يكون منهما على حد سواء، فليس الأمر هنا منصرفًا إلى العدد وكثرته، ولا إلى جنس القائم به، بل إلى صلاح العمل، وقيام المكلف به على الوجه المطلوب منه، وفي هذا إيقاظ للمسئولية الفردية، وتنويه بشأنها في إسعاد المجتمع كله، وإلماح إلى أن سعادة الفرد هي لبنة في سعادة الكل.

وقيل بل (مَنْ) الموصولة غالبًا مايُقصد بها ذكور، لأجل هذا تم النص على الإناث هنا.

ومجيء (أو) دون الواو في قوله تعالى: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ بأن يقال: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾؛ لبيان أن حصول ذلك من أحدهما ليس مربوطًا بحصوله من الآخر، فقد تحصل المرأة على تلك الحياة، ولا يحصل عليها الرجل، أو العكس وهكذا، ولو قيل بالواو (مِّن ذَكَرٍ وأُنثَى) لربما أوهم ذلك ضرورة الاشتراك بينهما في فعل العمل الصالح، وقد يكون في هذا من إشعال المنافسة في كسب تلك الحياة ما يدفع إلى مزيد من العمل الصالح والحرص على حسنه وقبوله.

وذكر الرجل والمرأة بعنوان الذكورة والأنوثة(ذكر، أنثى) دون أن يكون الكلام: (من رجل وامرأة)؛ لأن الذكورة والأنوثة أظهر في تمييز هذين الجنسين من حيث الأصل، والأوصاف الأخرى تأتي للتمييز بينهما في مراحل لاحقة، كما أن هذين الوصفين يحققان التمييز المذكور المربي للمسؤولية الفردية من غير إشعار بمدحٍ أو ذم، وهذا هو المراد هنا، والله أعلم.

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ هذه جملة حالية وقعت قيدًا لما سبق،وهذه الجملة مكونة من ضمير الغائب المنفصل:(هو) العائد على (مَنْ عمل) باعتبار الجنس، أي جنس من يعمل ذلك، وهو مبتدأ و(مؤمن) خبر، وهذا التركيب (وهو مؤمن) فيه توكيد بسبب تكرار الإسناد، فالإيمان فيه مسند إلى فاعله المعنوي مرتين: مرة على أنه خبره، ومرة على أنه فاعله؛ لأن اسم الفاعل يعمل عمل فعله، فهذا التركيب في قوة (مؤمنا مؤمنا)، وقد يقال لماذا جاءت الحال جملة ولم تكن (من ذكر أو أنثى مؤمنين)، أو (مؤمنًا، ومؤمنة)؟ لو قيل ذلك ؛ لأنصرف الحال إلى واحد من الذكر أو الأنثى، والمراد أن ينصرف إلى (مَنْ عمل) لأنه الأعم والأشمل، ولا يقوم بذلك إلا الجملة (وهو مؤمن)، وإنما قيل (مؤمن) بالاسم دون (يؤمن) بالفعل لبيان أن المطلوب أن يكون الإيمان صفة ثابتة فيه، مستقرة في قلبه، لا أنه متغير متحول.

إلى هذا الحد انتهى ما يخص مقومات الحياة الطيبة، انتهى ما يخص الشرط المفهوم من الموصول (مَنْ)، انتهى ما يخص المطلوب من المخلوق وبقي الجزاء والجواب والعطاء الرباني:

﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ اشتملت هذه الكلمات الثلاث على الوعد العظيم بالحياة المبتغاة المطلوبة لكل عاقل، إنها الحياة الطيبة، وقد جاء تأكيد حصولها لمن قام بها تقدم (العمل الصالح والإيمان) بهذه المؤكدات:

الفاء المشعرة بترتب ما بعدها على ما قبلها.

اللام القسمية الدالة على التوكيد، دون السين أو سوف للإشعار بسرعة الحصول.

التعبير بضمير الجمع (نحن) المضمر في الفعل، دون ضمير الواحد (لأحيي).

الفعل المضارع المشعر بتجدد تلك الحياة الطيبة الآن، وفيما يستقبل من عمر ذلك الإنسان.

التعبير بمادة (الحياة) (لنحيينه) دون (لنعيشنه) أو (لنجعلنه) أو ما شابه ذلك لما في مادة الحياة من دلالة الحركة والنماء والخير، فهي ضد الموت المشعر بالهمود والانقضاء والانقطاع، كما أن في ذكر مادة الحياة ما يدل على أن ما كان من العيش على غير هذا المنهج لا يعد (حياة) وإن ظنه أهله كذلك، كما قال سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾، وكما قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾(طه:١٢٤).

وجود نون التوكيد الثقيلة في الفعل.

وجود التجانس الصوتي بين (فلنحيينه حياة) مما يشعر بتطابق بين الفعل (نحيي) وهو ما يمارسه الإنسان، وبين الاسم (حياة) وهو جنس الحياة الطيبة المطلوبة المبتغاة.

تنكير كلمة (حياة) فيه دلالة على الشيوع والشمول، فهي كلمة تشمل كل صور الحياة السعيدة الهانئة.

التقييد بالوصف (طيبة)، يجعل الحياة الممدوحة والموعود بها هي ما كانت محصورة في هذه الصفة (طيبة).

اختيار وصف الطيب خصوصًا، فهو يدل على الزكاء وطيب الرائحة، ومنه (الطيب)، وعلى الخلو من كل صور النكد والكدر، ومما يدل على عظم هذا الوصف مجيئه مع ما يشعر بالفضيلة والخير من ذلك:

الكلام والقول كقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾، وقوله تعالى:﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾، والبلد، كقوله تعالى:﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾، وقوله تعالى:﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾، والحلال، كقوله تعالى: ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾، وجنس الناس الممدوحين، كقوله تعالى:﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ وقد افتخرت عائشة بأشياء منها: أنها خلقت طيبة ووعدت مغفرة ورزقا كريما. وإذا كان المؤمنون قد حصلوا على هذه الحياة الهانئة (الطيبة) وعاشوا لذائذها، كما قال بعضهم: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، وقال الآخر: لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه، أي: من العيش الطيب لجالدونا عليه بالسيوف، وقال الثالث: إن كان أهل الجنة في مثل ما نحن فيه إنهم لفي عيش طيب، وغير ذلك مما يدل على هناءة عيشهم وطيب حياتهم، فإذا كانوا قد عاشوا ذلك حقيقة، فإن وصف الطيب المذكور يصاحبهم حتى عند موتهم، كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾، ويستمر معهم حتى يدخلوا الجنة، كما قال سبحانه:﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾.

إلى هذا الحد انتهى ما يخص الحياة الدنيا، وبقي ما يخص الحياة الأخرى، وهو الوارد في قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، وقد أكد حصولهم في الآخرة على أحسن الأجر بعدد من المؤكدات على النحو التالي:

لام التوكيد القسمية.

ضمير الجمع(نحن) المضمر في الفعل، دون ضمير الواحد (ولأجزي).

نون التوكيد الثقيلة.

مجيء الفعل بصيغة المضارع ليتناسب مع الغيب المستقبل.

التعبير بمادة (الجزاء) المشعرة بفضيلة عملهم واستحقاقهم للجزاء والأجر.

النص على مفعول الجزاء، (أجرهم)، مع ما في مادة الأجر من الإشادة بأعمال يستحقون بها الأجر؛ لأن الأجرة لا تكون إلا مقابل عمل يطلب، ولولا هذه المعاني لقيل مثلًا: (ولنجزينهم خيرًا) دون التفصيل المذكور.

التعبير بـ(أحسن) دون (الحسن)، بأن يقال: (بالحسن مما كانوا يعملون)، لما في ذلك من بيان عظيم فضل الله على عباده المؤمنين، فإذا كان عَمَل أحدهم حسنا مرة، وأحسن مرة فيعطي أجره على أساس الأحسن، لا الحسن تفضلًا من الله ومنة.

(ما) الدالة على الشيوع مع ما فيها من المد المشعر بامتداد ذلك الشيوع وشموله، ويؤيد ذلك مافي (ما) من الإبهام المصوّر لعظم ما يعطيهم ربهم.

وجود فعل الكون (كانوا)، مع أن الكلام يمكن أن يتم دونه بأن يقال: (بأحسن ما عملوا)، ولكن في ذكر هذا الفعل من الإشعار بعراقتهم في تلك الأعمال، وقدم شأنهم فيها ما لا يخفى.

التعبير بمادة العمل وبالفعل المضارع (يعملون) يشعر بعظيم شأن العمل، والاستمرار فيه، وأثر ذلك في مكانة العبد يوم القيامة، وعلو درجته، أما دخول الجنة ابتداء فلن يكون إلا بفضل الله ورحمته.

وبقي ملمح وهو الاختلاف بين الفعلين (فلنحيينه) و(لنجزينهم) من حيث الضمير، فالأول أفرد فيه الضمير، والثاني جُمِعَ، ولعل سر ذلك أن الحديث في الفعل الأول عن الحياة الدنيا، والمذكور هو الوعد بطيب تلك الحياة، ومبنى هذه الحياة حب الذات والتملك والحيازة، فجاء ما يناسب حال الإنسان فيها من تخصيصه بتلك الحياة الطيبة، لأنها مطلب كل إنسان حفزًا له على الطاعة، إضافة إلى أن الناس لن يجتمعوا جميعهم في هذه الحياة في مكان واحد وزمان واحد، بل يموت بعضهم، ويولد آخرون

وهكذا، فكان الاهتمام بالجنس لأنه هو الذي يمكن أن يجمعهم، لا بالعدد، وأيضا لما كان الإحياء حياة طيبة أمرًا واحدًا لا يتفاوت فيه أحد، فكأن أهله في ذلك فرد واحد، أما في الفعل الثاني (ولنجزينهم) فالحديث عن الجزاء المبني على العمل والتكليف، ولأن الأصل في الجزاء التفاوت بين الناس جيء بضمير الجمع المشعر بالتغاير في أحوالهم يوم الفصل والقضاء، كما أن الآخرة ليست موضع تنافس؛ لانقضاء وقت العمل، والناس فيها خلصت قلوبهم من شوائب حب النفس والانفراد، لذا جاء الجمع في ضمير الفعل، زيادة على ذلك أن الناس يوم القيامة يكونون مجتمعين جميعًا بخلاف الدنيا، فناسب هنا ما يظهر كثرتهم وهو الجمع، لا ما يتحدث عن جنسهم.

وأخيرًا أستطيع القول بأن المتأمل لهذه الآية العظيمة يجد أنها بدئت بمادة العمل (مَنْ عمل) وختمت بالمادة نفسها (يعملون)، بدئت بالماضي، وختمت بالمضارع لبيان أن المقصود هو الحث والحض على العمل الصالح،وجعل هذا العمل الصالح المقيد بحالة الإيمان شرطًا في حصول ما تبتغيه كل النفوس البشرية، وهو الحياة الطيبة، ليكون ذلك أدعى إلى الإيمان والعمل الصالح، وهذا أسلوب عظيم في تحبيب الخير للناس، حيث تربط به محبوباتهم ومطلوبات أنفسهم، فمعنى الآية، من أراد السعادة والهناء فعليه بهذه المعادلة: العمل الصالح + الإيمان = الحياة الطيبة.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس
الثامن عشر

الهمة في طلب العلم

الحمدُ لله رَبِّ العالمينِ، والصلاةُ والسلامُ على المبعُوثِ رحمةً للعالمينِ، نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبه أجمعين، أمَّا بَعد:

هذه وقفات مع قصةٍ لها مدلولها وأبعادها في سماء التربية، وطلب العلم، ولعلنا نبقى معها لأهميتها في عدة لقاءات.

نبدأ هذه القصة؛ وهي ما دار في سورة الكهف بين موسى عليه السلام والعبد الصالح، نبدأها بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾(الكهف: ٦٠).

أولًا: يتضح من هذه البداية أنَّ الآياتِ لم تُشر إلى سبب القصة، ولا الدافع إليها، كما أنها لم تحدد تاريخها غير ما يدل عليه الظرف ﴿ وَإِذْ ﴾ من المُضِي، إلاَّ أنَّ هذه البداية تُوحي من أول الأمر بإظهار عزم موسى عليه السلام على المُضي لهدفٍ معين، وهو هنا بلوغ مجمع البحرين، وهو بلا شك ليس هو الهدف النهائي، ولا المقصود، بدليل أحداث القصة الآتية.

ثانيًا: قوله: ﴿ لِفَتَىٰهُ ﴾، هنا إبرازٌ لحوار النبي المعصوم موسى عليه السلام، ذي المكانة العظيمة عند ربه، فهو كليم الله؛ حواره مع فتاه، وفي هذا إشعار بعناية موسى عليه السلام بالصحبة من جانب، وبالاستعانة على طلب العلم بمن يخدمه أو يعينه في رحلته من جانبٍ آخر، ومجرد التخاطب مع فتاه يدل على فضيلة التواضع التي لا يتم التعلم دونها، وقد قيل: لا يتعلم متكبّر، وقد قيل: بأنَّ الفتى رافق موسى عليه السلام ليتعلم منه، وبهذا تشتمل القصة على حادثتين للتعليم؛ الفتى مع موسى عليه السلام، وموسى عليه السلام مع العبد الصالح، ومهما يكن من أمر فحديث موسى عليه السلام مع فتاه عن همته، وإصراره؛ وما يريد يدل على تواضعٍ كبير من

موسى عليه السلام، ويدل على إشراكه لرفيقه في السفر وخادمه أو من يطلب العلم منه في همومه، وإطلاعه له على أهدافه، حتى يتحمل معه المشقة، وحتى يكون أكثر عطاءً وتضحية.

ثالثًا: قوله: ﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾؛ أي: لا أزال سائرًا، وهذا يُشعر بعزم موسى عليه السلام على الاستمرار مهما كانت الصعوبات والعقبات، ويدعم ذلك ذكرُ الغائية ﴿حَتَّىٰٓ﴾، وتحديد الغاية بمجمع البحرين، ووضع خيار آخر يدل على هِمّة عظيمة لا تقف عند حد كما في قوله: ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾، أي: ولو أن أسير حُقبًا من الزمان، والحقب: ثمانون سنة، وقال ابن عباس: «الحقب هو الدهر»[(١)]، ولا شك أنَّ كلمة (حقبًا) تدل على زمنٍ ممتدٍ بعيد، وتدل -أيضا- على عزمٍ وحرصٍ كبيرٍ من موسى عليه السلام.

إنَّ هذه البداية لتشعر بهمة عالية، وتصميم واضحٍ لبلوغ الهدف، وهكذا تتضح لنا من أول القصة الصفاتُ المهمةُ لطالب العلم الذي يرغب في التميز والوصول إلى مستويات عالية من التحصيل والإتقان، يقول القرطبي رحمه الله: «في هذا من الفقه رحلة العالم في طلب الازدياد من العلم، والاستعانة على ذلك بالخادم والصاحب، واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء وإن بَعُدَتْ أقطارهم، وذلك كان دأب السلف الصالح، وبسبب ذلك وصل المرتحلون إلى الحظ الراجح، وحصلوا على السعي الناجح، فرسخت لهم في العلوم أقدام، وصحّ لهم من الذكر والأجر والفضل أفضل الأقسام»[(٢)].

رابعًا: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ (الكهف: ٦١)، نجد هنا تفصيلًا دقيقًا في القصة، فالله ﷻ يجلّي لنا هذه الجزئية من رحلة موسى عليه السلام لطلب المعرفة، فهو قد بلغ مراده ﴿مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾، وفي هذا ما يحفز مَنْ يسمع أو يقرأ هذه القصة بأنَّ الجهد والتنظيم، وبذل الوسع؛ يوصل صاحبه إلى تحقيق الهدف، فها هو ذا موسى عليه السلام يحقق الهدف القريب، وهو الوصول إلى مجمع البحرين، وهذا يعني بالطبع أنه سافر،

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ١٧٤).
(٢) تفسير القرطبي (١١/١١)

وكابد، وصبر؛ حتى قطع تلك المسافة ووصل إلى المكان المحدد، ثم هو يصممّ ثانية للمضي في الطريق، لتحقيق مطلبه الأساس وهو التعلم.

خامسًا: قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴾، من خلال النص النبوي للقصة يتضح لنا أن هناك علامة لا يعرفها إلاَّ موسى عليه السلام تدله على وصوله إلى مكان العبد الصالح، العالم الذي قصده ليتعلَّمَ منه، وتلك العلامة هي فقده للحوت المحمول معه في مكتل، لذا نصت القصة على فقد هذا الحوت، وكيف أنه اتخذ سبيله في البحر سربًا، وهذه عجيبة وغريبة، إذ كيف يقوم حوتٌ ميت فيصير حيًا ثم يدخل البحر، وهذا الدخول في غفلةٍ منهما، ولم يتذكر الغلام شأن هذا الحوت إلاَّ بعد مغادرة المكان؛ رغم غرابة الحدث.

ولعل في وجود هذه العلامة العجيبة ما يهيئ لموسى عليه السلام عجائب وغرائب أكبر تنتظره في هذه الرحلة، فكأنَّ هذه الحادثة بما فيها من الغرابة تهيئه لما سيجده مستقبلًا، حتى إذا جاء موطن التعلم ووقته؛ تلقّاه بيُسر وسهولة وقَبول، ولعله يستفاد من هذا الملمح ضرورة التدرج والتهيئة-خصوصًا-في تعلم الجديد وغير المألوف.

سادسًا: قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا ﴾، هنا تُبرز القصة حدثًا آخر، ألا وهو مجاوزة موسى عليه السلام وفتاه المكان المحدد، كما يدل عليه الفعل والتثنية ﴿ جَاوَزَا ﴾، ولكن الله ﷻ بحكمته وتقديره جعل موسى عليه السلام يشعر بالجوع والنصب؛ فطلب الغداء، وعلل ذلك بالنصب والتعب الذي لقيه في سفره ﴿ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾، وهنا نجد دليلًا واضحًا على حجم التعب والنصب الذي تجشمه موسى عليه السلام في سبيل العلم في هذه الرحلة، وقد ورد في وصف هذا النصب قوله ﷺ: «فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ بَقِيَّةَ لَيْلَتِهِمَا وَيَوْمِهُمَا، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ الْغَدِ قَالَ لِفَتَاهُ: آتِنَا غَدَاءَنَا؛ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا، وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى النَّصَبَ حَتَّى جَاوَزَ حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ»[1].

(١) صحيح البخاري (١٢/ ٨٨)

وقد ذكر الله لموسى أسفارًا أخرى، إلى مدين، وإلى فرعون، وإلى ربه، ولم يرد معها ذكر للمشقة والنصب، بينما هنا في رحلة العلم ذُكر التعب والنصب في إشارة لطيفة لضرورة بذل الوسع والطاقة في سبيل التعلم، ولقد اجتمع على موسى عليه السلام من المشاق ما يصور شدة صبره وتحمله عليه السلام، ومن ذلك:

مشقة السفر للبحث.

نسيان الفتى للعلامة، مما تسبب في طول السفر وتجاوز المطلوب.

الرجوع على الأثر وما يرافقه من مللٍ وضجر، وضيق للصدر.

شدة الجوع، وما يصاحبه من تعبٍ ونصب، وما يُؤثِّر منه على عقل الإنسان ونفسيته.

وهذا الحجم من المشاق غالبًا ما يؤثر على مسيرة التعلم عند كثير من المتعلمين، ولكن نحن الآن أمام نموذج عظيم في تخطيّ العقبات، والصبر على المشاق؛ في سبيل العلم، وهذا ما ينقص أكثر المتعلمين اليوم، فهم يتوقفون أو يضعفون لأدنى عقبة، وهذا ما تؤكده الدراسات بأن خبرات النجاح السهل الذي يأتي بدون تعب ومشقة؛ تجعل المتعلم يتوقع دائمًا نتائج سريعة، ويخشى الوقوع في الفشل، ويكون سريع الإحباط عند أي عقبة، لذا فنحن نجد عبر تاريخنا الطويل أن العلماء المؤثرين في الأمة سلوكًا، وعِلمًا هم أولئك الذين قاسوا شدائد وصعوبات؛ وتحملوا في سبيل العلم مشقة كبيرة تمثلت في طول الأسفار والصبر على مشاق الحياة وصعوباتها من الناحية المعيشية والبيئية، ونرى عكس ذلك في واقعنا المعاصر من ضعف المخرجات في الجانب المعرفي، والمهاري، والحياتي في التعليم المترف المدلل، لذا فالأولى في نظري عدم المبالغة في ترفيه التعليم، بل لابد من إعادة النظر في آثار ذلك على شخصيات المتعلمين، وإنْ كان ولابد من تسهيل المعلومة وتيسيرها، ولابد أيضًا من حماية المتعلمين من آثار هذا التسهيل، وإيجاد برامج تبني فيهم قيم الجدية، والقوة، والصبر، والتحمّل، وتقدير قيمة العلم أخذًا بمبدأ: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾(مريم:١٢).

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

صفات المربي ١ـ٢

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

ما زلنا مع قصة موسى عليه السلام مع الرجل الصالح، في قصة التعلم والتعليم، وقد وصلنا إلى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾(الكهف: ٦٣-٦٥)، ولنا مع ذلك وقفات.

أولًا: سبق قبل هذه الآية ذِكرُ تجاوزهما للمكان، ثم ذُكر هنا رجوعهما إليه، وفي هذا دليلٌ على الإصرار على بلوغ الهدف، لأنَّه من المعلوم أنَّ بعض الناس لو حصل له مثل ذلك لربما تنازل عن هدفه؛ وآثر الراحة، لكن كل هذه المشقة، والذهاب، والإياب، والنصب، وتجاوز المكان، والعودة إليه؛ دليلٌ على إصرارٍ عظيم، يصل بصاحبه-غالبًا- إلى ما يريد.

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ ﴾، نجد في هذا المقطع إظهارًا لحوار الفتى مع موسى عليه السلام، ردًا على طلبه عليه السلام ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا ﴾، كما نلحظ في هذا الخطاب ذكرًا للصخرة التي أَوَيَا إليها، وهذا يعني أنَّ للصخرة شأنًا؛ فهي مكانُ اللقيا المنتظر، وهنا يذكر الفتى أنه نسي الحوت، وسها عنه، ولم يذكر شيئًا لموسى عليه السلام بسبب

أنَّ الشيطان أنساه ذلك، وهنا ذكرٌ للنسيان، وهو أمرٌ قد يحدث للمتعلم، وذكرٌ للشيطان أيضًا، وهو قد يصرف الإنسان عن الخير، وفي هذا إشارة إلى بعض المعوقات التي تعترض طريق المتعلم، والصعوبات -كما هو معلوم- جزءٌ من مكونات الموقف التعليمي، قد يتعرض لها أي متعلم، وعلى المتعلم أنْ يتكيَّف معها، إمَّا بتغيير الموقف بكامله، وإمَّا بتغيير طريقته وأسلوبه؛ المهم أن يصبر ويفكر حتى يتسنَّى له بلوغ الهدف المطلوب.

ثالثًا: قوله تعالى: ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾، القائل هنا هو موسى عليه السلام، وما زال الحوار دائرًا بينه وبين فتاه، والملحوظ هنا أنَّه لم يتوجه بلوم الفتى على نسيانه، وهذا يعني أنَّ النسيان عذرٌ شرعي لا يُلام عليه الإنسان غالبًا، إذا لم تظهر منه بوادر التفريط، كما نلحظ هنا أنَّ موسى عليه السلام باشر بذكر حصوله على ما يريد، ثم أتبعه بخطوة عملية؛ وهي الارتداد والرجوع، وفي هذا توجيه بالمبادرة وعدم التأخير، عند حصول ما يقتضي ذلك، وهذا تناسب-تمامًا-مع جديته عليه السلام، واهتمامه بالوصول للهدف الذي حدده، دون اكتراثٍ بالعقبات، أو انشغالٍ بالجزئيات، ونجد في خطاب الفتى مع موسى عليه السلام أنَّه ساقه بصورة تُشعِرُ بالاعتذار، حيث نسب الخلل إلى الشيطان، بينما يظهر من خطاب موسى عليه السلام في القضية نفسها أنَّه حصل على ما يريد، ووقع ما كان ينبغي، فرغم ما كان فيه من تعبٍ وجوع قال: ذلك ما كُنَّا نبغ، وفي هذا إلماحه إلى مضمون ما سيأتي وما سيمر على موسى عليه السلام من أحداث، فحادثة فَقْد الحوت لها مدلول عند الفتى ربما يقوده إلى الحزن وإلى الاعتذار، بينما هي عند موسى عليه السلام سببٌ للفرح والسعادة؛ لأنه وجد المكان الذي يبحث عنه، وفي هذا إشارة إلى أنَّ الناس يختلفون في تفسير الأحداث، وفي طبيعة التعامل معها؛ حسب خلفياتهم العلمية والمعرفية عنها، وهذا هو ما حدث لموسى عليه السلام مع فتاه أولًا؛ وبعد ذلك مع العبد الصالح ثانيًا، ومن هذا ندرك كيف تُسهم طريقة

تفكير الإنسان وإدراكه للأشياء والمواقف في توجيه سلوكه، وأحيانًا في سعادته وشقائه، فهذا موسى عليه السلام يسعد بذلك الموقف الذي هو فقد الحوت؛ والفتى على خلاف ذلك.

رابعًا: في قوله تعالى: ﴿نَبْغِ﴾ (ياءٌ) محذوفة دون مسوغٍ نحوي؛ فيكون هذا من باب التخفيف الذي تجيزه اللغة، وقد يكون في سقوط هذا الحرف وهو (الياء) من كلمة ﴿نَبْغِ﴾؛ المُبَينة غاية السرور لموسى عليه السلام لحصوله على ما يريد، وقد يكون في سقوطها تصويرٌ لسقوط بعض المتاع من المستعجل، أو المنتظر لشيء ما إذا حصل له مراده، فإنه غالبًا ما يغفل عن بعض متاعه لاشتغال نفسه بما هو أهمّ.

خامسًا: قوله: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ فيه دلالة على شدة عنايتهما باتباع الأثر للوصول إلى المكان، وهذا فيه بذلٌ لمجهودٍ جديد يُضاف إلى ما سبق؛ وهو ما يصور همةً لا تعرف الكلل ولا الملل.

سادسًا: قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾(الكهف: ٦٥)، نجد فيها (الفاء)، وهي ربما تدل على سرعة الوصول إلى الهدف، وهو العالم (العبد الصالح)، وما زلنا إلى هذه اللحظة في القصة نجد إبرازًا لدور رفيق الرحلة وهو الفتى كما في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا﴾؛ وهذا يدل على أنَّه إلى لحظة عثور موسى عليه السلام على مراده؛ كان الفتى يرافقه، وهذا يشعر بأنَّ الصحبة مهمة في حياة الإنسان؛ لما لها من أثر-خصوصًا-إذا كان الصاحب أمينًا موثوقًا به، ثم بعد هذه اللحظة، وبعد هذا المكان لا نجد ذكرًا للفتى أبدًا، فهل يعني هذا أنَّه سرّحه، واستغنى عنه، فعاد إلى بلده؟

أم هل يعني ذلك أنَّه عليه السلام خاف على الفتى مما يراه ويسمعه؟

أم هل يعني ذلك أنَّ ما بعد لُقيا العبد الصالح يعدُّ سرًا بينه وبين ربّه، فلا يحسن أن يطّلع عليه أحد؟ قد يكون ذلك، أو قد يكون في ذلك إحاطة وتعليم لنا بأنَّ الصحبة

قد تصلح حال السفر، أمَّا عند الطلب فقد تكون سببًا للتأخر والانشغال، خصوصًا إذا اختلفت الاهتمامات.

سابعًا: قوله تعالى: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ﴾ نجد هنا أنَّ أول وصف يقابلنا في هذا القسم من القصة الخاص بلقيا موسى عليه السلام بالعبد الصالح؛ هو العبودية ﴿ عَبْدًا ﴾، والعبودية لله شرفٌ كبيرٌ يفخر به المؤمن، لأنَّ كل أحد إمَّا أن يكون عبدًا لله، وإما أن يكون عبدًا لسواه، من مالٍ، أو منصبٍ، أو صنمٍ، أو غير ذلك، لذا كان من الشرف للإنسان أن يكون عبدًا لله، وهي هنا مؤكدةٌ؛ لذكرها أكثر من مرة ﴿ عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ﴾، والنص على كونه من عبادنا، ووجود (نا) الدالة على الفاعلين، مع أنه ﷻ واحد؛ دليلٌ على التعظيم المقتضي لتشريف لمن ينتسب إلى عبوديته سبحانه، يقول الألوسي: «والتنوين في ﴿ عَبْدًا ﴾ للتفخيم، والإضافة في ﴿ عِبَادِنَآ ﴾ للتشريف والاختصاص، أي: عبدًا جليل الشأن، بمن اختص بنا، وشرُف بالإضافة إلينا»[1]، كما أنَّ في إبراز هذه الصفة للعالم الذي قصده موسى عليه السلام؛ إشارة إلى أنَّ أولى الصفات للعالم هي التعبد لله، بمعنى أن يكون علمه في سبيل الله، وبمعنى آخر أن يقوده علمه إلى هذه الغاية العظيمة، وهي: العبودية بمعناها الشامل، الذي يعني عمارة الأرض على مراد الله، وهذا يدل أيضًا على أن التعلم له مقصدٌ وغاية، ويجب أن تكون هذه الغاية بانيةً نافعةً مصلحة، لا هادمةً، ولا ضارةً، ولا مضلةً، وقد أشرنا من قبل لأهداف وغايات التربية.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) تفسير الألوسي (١١/ ٣١٦)

صفات المربي ٢-٢

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

وما يزال الحديث موصولًا عن قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح؛ في قضية التعليم والتعلّم، وكُنَّا قد ذكرنا سابقًا عن الصفة الأولى في العالم؛ وهي العبودية، التي وردت في قوله تعالى: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ﴾، والآن سنتحدث عن الصفة الثانية وهي الواردة في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾، والصفة الثالثة ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾، وعن هاتين الآيتين سنتحدث ونذكر ما فيهما من دلالات.

أولًا: في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ نجد هنا بيانًا للصفة الثانية؛ وهي الرحمة، وهذا مؤهلٌ آخر أعطاه الله عز وجل لهذا العبد الصالح، وحتى ولو كان المقصود بالرحمة هنا النبوة كما قال الجمهور، فإنَّ الرحمة بمعناها المعروف باقية؛ لأنها من صفات الرُسل والنبيين، وهم معلمو الناس، وهم الذين يدعونهم إلى الخير، وهم القدوة في التربية والتعليم، قال الله تعالى عن نبيه محمد ﷺ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران:١٥٩)، مع أن بعض المفسرين قال إنَّه ليس بنبي؛ بل إنه عبدٌ صالح آتاه الله رحمةً وعلمًا، ولو كان نبيًا أو رسولًا لذكر عنه ذلك كما ذكر عن غيره، فعلمنا من هذا أن ذكر صفة الرحمة له مدلوله الذي له علاقته بالتعلم، لذا كانت الرحمة من أهم

صفات المعلم الناجح، ومما يكاد يتفق عليه جلّ الدارسين هو موضوع الرحمة في المعلم، ونعني بذلك عطف المربّي، ولينه، وشفقته على الناس، وإحساسه بمعاناتهم وحاجاتهم ومشكلاتهم، وتقديره لذلك عند التوجيه والتكليف، وعند التعامل والمحاسبة؛ بحيث ينظر إلى المتربي من خلال قدراته وطاقاته.

وفي قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾، في ذكر الإيتاء هنا، الذي هو الإعطاء؛ بيانٌ لأمر خاص يتعلق بالإيتاء خاصة، فإنَّه قد ورد في القرآن في شأن المعنويات أكثر من وروده في شأن الماديات، ولذلك ذكر مع الحكمة، والعلم، والرحمة، والمُلك، كما ورد هنا في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾، وجاء التعبير هنا بالفعل المبني للمعلوم، دون (أوتي) بالفعل المجهول؛ مما يؤكد الاهتمام بالمُؤتى، وكل موضع ذكر فيه وصف الكتاب (آتينا) كما يقول الأصفهاني: «فهو أبلغ من كل موضع ذكر فيه (أوتوا)، لأنَّ (أوتوا) قد يقال إذا أوتيَ مَنْ لم يكن منه قبول، و(آتيناهم) يقال فيمن كان منه قبول»[(1)]، فهذا دليل على مكانة العبد الصالح عند ربه، وعظم ما آتاه الله عز وجل من العلم.

ثانيًا: في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ بيانٌ للمؤهل الثالث، وللصفة الثالثة؛ وهي العلم، وهي بلا شك مؤهلٌ مهم لابد أن يكون في العالم، وهي هنا علمٌ مُميَّز، خاص، لا يوجد مثله عند موسى عليه السلام، يدل على هذا قول العبد الصالح لموسى عليه السلام كما في الصحيح: «قَالَ: يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ، عَلَّمَنِيهِ اللهُ لاَ تَعْلَمُهُ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَكَهُ اللهُ لاَ أَعْلَمُهُ»[(2)]، وهنا لابد من عقد موازنة إضافة إلى ما سبق عرضه بين هاتين الصفتين العظيمتين؛ صفة الرحمة، وصفة العلم، وبيان ذلك هو في النقطة الثالثة من هذا التحليل، ونقول في ذلك: أنَّ الرحمة قد مَنَّ الله بها على العبد الصالح بكلمة ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾، بينما العلم ذكره الله عز وجل بكلمة ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ﴾، ووصف

(1) السيوطي في الإتقان (1/ 256).
(2) صحيح البخاري (12/ 88).

الرحمة بأنها ﴿ مِّنۡ عِندِنَا ﴾، بينما وصف العلم بأنَّه ﴿ لَّدُنَّا عِلۡمًا ﴾، كما نجد أن وصف الرحمة، وهو ﴿ مِّنۡ عِندِنَا ﴾؛ قد تأخر عنها، وقال: ﴿ رَحۡمَةً مِّنۡ عِندِنَا ﴾، بينما تقدّم وصف العلم عليه في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمًا ﴾، فما سرُّ كل ذلك؟

كل هذه الفروق اللفظية لابد من تفسيرها؛ لنعرف أسرار هذا التمايز بين العلم والرحمة، خصوصًا فيما يتعلق بعملية التعلّم، إجابة على ذلك يمكن أن نقول: تشترك صفتا الرحمة والعلم في أنَّ أفعالهما ماضية ﴿ ءَاتَيۡنَٰهُ ﴾ ﴿ وَعَلَّمۡنَٰهُ ﴾، وهذا يدل على ترسخ هاتين الصفتين في هذا العالم؛ لأنَّ الماضيَ يدل على ثبوت الصفة بخلاف المضارع لو قيل: نؤتيه، نعلمه، أمَّا عن سِرِّ وجود (عند) مع الرحمة، و(لدن) مع العلم، فلأن عند –والله أعلم– وإنْ كانت تدل على القرب، لكن (لدن) أكثر دلالة على القرب منها، فـ(لدن) أدل على الخصوصية من (عند)، ويُعبّر بها عما ظهر، و(لدن) يعبّر بها عما بطن، وقد ذُكر أنه يفهم من فحوى﴿ مِن لَّدُنَّا ﴾، ومن تقديمه على ﴿ عِلۡمًا ﴾ اختصاص ذلك بالله ﷻ، كأنه قيل: علمًا يختص بنا، ولا يُعْلَم إلا بتوفيقنا، وفي اختيار ﴿ وَعَلَّمۡنَٰهُ ﴾ على ﴿ ءَاتَيۡنَٰهُ ﴾ من الإشارة إلى تعظيم أمر هذا العلم ما فيه، وعلى هذا فتكون الرحمة عطية عامة، وهبة ظاهرة، فإذا ارتبطت بالعلم كانت أفضل ما يكون في المعلم، ولابد أن تبرز هذه الرحمة على سلوكيات العبد، وتظهر في أعماله، بينما العلم يعد هبةً خاصة؛ كما يشير إلى ذلك العلم الموجود عند العبد الصالح، وقد قدّم الله ﷻ إيتاء الرحمة على الاتصاف بالعلم، وهذا يدل –كما ذكرنا– على أنَّ صفة الرحمة من صفات المعلم المهمة، ويمكن الاسترشاد بذلك، أي: بذكر الرحمة أولًا؛ على سَبْقِ التربية على التعليم، وأن يكون من مهمة المعلم التربية أولًا، ولن تصلح تربية دون خُلق الرحمة، ولذا ذكر الله ﷻ معها الإيتاء دون الإعطاء، ثم يأتي بعد ذلك الجانب المعرفي المتعلق بالعلم، وهذا واضحٌ في علاقة موسى عليه السلام مع العبد الصالح فيما سيأتي من أحداث.

وفي قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾(الكهف: ٦٦)، نجد أنَّ هذا هو أول خطاب يَرِد في القصة بعد لُقْيَا موسى عليه السلام للعبد الصالح، وبعد ذكر تلك المؤهلات الثلاثة التي أشرنا أليها، ونجد أنَّ أول كلمة نطق بها موسى عليه السلام هي (هل)، وهي: أداة السؤال؛ الذي هو مفتاح المعرفة، وهذي تدل أيضًا على أنَّ طالب العلم، وهو موسى عليه السلام؛ هو الراغب في التعلم، لا أنَّه مفروضٌ عليه، فهو يتلقاه بشغفٍ ورغبة، و﴿هَلْ﴾ هنا سؤالٌ لطيف؛ يحمل أدبًا جمًّا؛ يتناسب مع أخلاق النبي الكريم موسى عليه السلام، فهو الآن في موطن الطلب، ولذا فهو لا يأمر، ولا يعنّف، فلم يقل: لِمَ لا تعلمني؟ أو متى تعلمني؟ بل قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾، وفي هذا من الأدب صورٌ عديدة، منها: قوله: ﴿هَلْ﴾، وهي استفهام ومقصود به العرض، وقوله: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾، وذَكر الإتباع ليشعر معلمه بتقديره له، وحفظه لمكانته، فأنا أتبعك لأتعلم منك، ولعل في طلبه الإتباع استغناءً عن صحبه غلامه الذي لم يعد له ذكر، فهذه صحبة جديدة مناسبة للموقف الجديد، وهذا الإتباع يوفّر لموسى عليه السلام القرب المادي من معلمه، وهو من وسائل الاتصال الفعّال بين المعلم المتعلم، والسفر يُوجِد بيئة مناسبة لاستمرارية هذا القرب، وهذا الاتصال في مواقف متنوعة، وقد أدرك المربّون هذا الأمر؛ وما له من تأثير إيجابي على المتعلمين، ولعل في قول جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه ما يؤيد هذا، حيث يقول عن النبي ﷺ: «مَا حَجَبَنِي النَّبِيُّ ﷺ مُنْذُ أَسْلَمْتُ، وَلاَ رَآنِي إِلاَّ تَبَسَّمَ فِي وَجْهِي»[1].

هذه العلاقة المستمرة بين العالم والمتعلم؛ المتمثلة في قضية الإتباع واضحةٌ في كلمة ﴿أَتَّبِعُكَ﴾ التي ذكرها موسى عليه السلام في بيان تعلمه من العبد الصالح.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) صحيح البخاري (١١/ ٩٠).

المجلس
الحادي والعشرون

أدب التعلُّم

الحمدُ لله رَبِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على المبعُوثِ رحمةً للعالمين، نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبه أجمعين، أمَّا بَعد:

ما زلنا مع قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح، حيث وصلنا إلى قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾، وسنقف مع هذه الآية وما بعدها عدة وقفات:

أولًا: نلحظ هنا أن موسى عليه السلام عرض على العبد الصالح أنْ يتبعه بشرط أنْ يعلمه، وقد استدل أهل العلم من هذا ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ على جواز التعاقد على تعليم القرآن والعلم، وفي هذا اهتمام واضح بالتعلم والرغبة فيه، لدرجة أنه عليه السلام يجعله في صورة عقد يجب الالتزام به من قِبل الطرفين، وهذا أيضًا يدل على جدية ووضوح في الهدف المنشود، كما يدل على تبني نظام دقيق؛ وسياسة محددة تكشف عن خلفية المتعلم والمُعلّم المعرفية والتربوية، فهناك معلّمٌ ومتعلمٌ وعقدٌ بينهما، وهناك تفصيل لنوع العلم وتقييد له بأن يكون رشدًا، أي: يدعو إلى الخير وينفع.

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾، هذا هو أول ردٍ ذُكر في القرآن على موسى عليه السلام من معلمه العبد الصالح، ونجد فيه أن العبد الصالح قد أكّد عدم صبر موسى عليه السلام بأمور: (إن)، و(لن)، ومجيء النكرة في ﴿ صَبْرًا ﴾ في سياق النفي ليعم جميع أنواع الصبر، وأيضًا نفيُ مجرد الاستطاعة؛ فمن باب أولى نفيُ الصبر ذاته، وأيضًا

قوله: ﴿مَعِيَ﴾ فيه إيماء إلى أنه يجد من أعماله ما لا يجد مثله مع غيره، ومع أنَّ المتوقع هو أنْ يرحب العبد الصالح بموسى عليه السلام ويشجعه؛ إلَّا أنَّ ما صدر عن العبد الصالح في قوله لموسى عليه السلام في أول لقاء: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، بخلاف ما يدعو إليه التربيون من التشجيع والتسهيل، وقد يكون تفسير هذا الرد أن العبد الصالح أراد بهذا أنْ يوقف موسى عليه السلام على طبيعة وحجم الأحداث التي ستواجهه في المستقبل، وقد يكون هذا ضروريًا أحيانًا؛ خصوصًا إذا كان الطالب راغبًا صاحب همة وعزيمة، والعلم الذي يطلبه له طبيعة خاصة، إذ لابد أن يكون من أول لحظة مستعدًا عارفًا بالشروط، يقول ابن عاشور: «وفي هذا أصلٌ من أصول التعليم؛ أن ينبِّه المعلمُ المتعلمَ بعوارض موضوعات العلوم المُلقّنة، لاسيما إذا كانت في معالجتها مشقة»[1]، فمثل هذا الرد قد يكون مثيرًا جيدًا؛ ودافعًا قويًا لدفع الهمة وتقوية العزم؛ لأن التعلم يكون أفضل من غيره من خلال الخبرة، والرغبة، والإرادة القوية، والهمة العالية في مناخ الحوار والمناقشة، وطرح الأسئلة الاستقصائية، والبدء بالجانب الغامض أحيانًا؛ حيث قال له: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾، وهذا فيه شحذ للهمة؛ وأنَّه سيتعلم أمرًا لم يعرفه من قبل، وفي مثل هذه الحالة قد يكون التحدي مثمرًا، ومما يؤيد أسلوب الإثارة هذه وشحذ الهمة؛ قول العبد الصالح معللًا حكمه السابق: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾، والإحاطة: هي المعرفة الكاملة بالشيء بجميع أجزائه ودقائقه، والخبر: هو العلم، وفي هذا الاستفهام تعظيمٌ لحجم ما هو مُقدم عليه موسى عليه السلام؛ مما يجعله مستعدًا؛ آخذًا أُهبته؛ حتى لا يُفاجأ بالحوادث والغرائب.

ثالثًا: قوله تعالى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾، هذا هو رد موسى عليه السلام على ما قال له العبد الصالح، وهو يُنبئ عن ثقته بنفسه، ودخول (السين) في

(١) التحرير والتنوير - (٨/ ٤٠٨)

﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾ دليلٌ على استعداده لذلك في المستقبل، وقوله هذا أبلغ في ثبوت الصبر من نحو لو قيل: سأصبر، لأنه يدل على حصول صبرٍ ظاهر لرفيقه ومتبوعه، كما أنَّ صابرًا تعبيرٌ بالاسم الدال على الديمومة، ولو قيل: (سأصبر) لربما انقطع هذا الصبر في بعض المراحل؛ لكننا نجد أنّه لم يقل: ستجدني -إن شاء الله- من الصابرين، كما قال ذلك إسماعيل عليه السلام لما ذكر له أبوه أنّه يرى في المنام أنّه يذبحه، لأنَّ هذا الطريق لم يشرُكه فيه أحد، وقد قيل: قال موسى عليه السلام: ستجدني إن شاء الله صابرًا وحده؛ فلم يصبر، وقال إسماعيل عليه السلام: ستجدني إن شاء الله من الصابرين مع الجماعة، فصبر، فإن الجماعة لها أثرٌ ظاهر في التحمل والصبر.

رابعًا: قوله تعالى: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فيه ربطٌ لذلك الحكم بمشيئة الله تعالى، وهذا الربط بمشيئة الله تعالى دليل الإيمان، وتقدير الأسباب، وفي تأكيد ذلك بالتعليق على مشيئة الله عز وجل إيذانٌ بأنَّ الصبر والطاعة من المتعلم الذي له شيء من العلم؛ أعسر من صبر وطاعة المتعلم الساذج؛ لأن خلو ذهنه من العلم لا يحرجه من مشاهدة الغرائب، إذ ليس في ذهنه من المعارف ما يعارض قبولها، فالمتعلم الذي له نصيب من العلم، وجاء طالبًا الكمال في علومه؛ إذا بدا له من علوم أستاذه ما يخالف ما تقرر في علمه؛ يبادر عادة بالاعتراض والمنازعة، وذلك قد يثير النفرة بينه وبين أستاذه، فلتجنب ذلك خشيَ العبد الصالح أن يلقى من موسى عليه السلام هذه المعاملة؛ فقال له من أول الأمر: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾، فأكَّد له موسى عليه السلام أنه سيصبر، وأنه سيطيع أمره إذا أمره، والتزام موسى عليه السلام ذلك مبنيٌ على ثقته بعصمة متبوعه؛ لأنَّ الله أخبره بأنه آتاه علمًا.

خامسًا: قوله تعالى: ﴿صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ نجد أنه ذكر هنا أمرين: الصبر، وعدم العصيان، وذلك أنه لما كان مقتضى هذا الصبر الكامل على ما حذَّر منه العبد

الصالح، يقتضي الطاعة؛ قال إبلاغًا في الاتصاف بأكمل أحوال العلم: ﴿صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾، وفيه دليلٌ على أنَّ أهم ما يتّسم به طالب العلم هو: الصبر والطاعة للمعلم، ونلحظ أنَّه في جانب الطاعة نفى المعصية فقال: ﴿ وَلَآ أَعْصِى ﴾، ولم يقرر الطاعة كحاله مع الصبر، فلم يقل: صابرًا طائعًا، وذلك أنَّه أراد أن يطمئن معلمه مما يخافه منه، وهو العصيان والمخالفة، أمَّا الطاعة فهي أمرٌ معهود من طالبٍ للعلم مثله.

سادسًا: قال: ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾، قال العبد الصالح ذلك في حواره مع موسى عليه السلام على سبيل إتمام الشروط بين العالم والمتعلم؛ ليكون كل منهما على بينّة، والالتزام بالنظام والشروط من التربية العملية التي يتلقاها ويتعلمها الطالب بالممارسة، وهذا ما تُغفله الممارسات التربوية في جُلّ مؤسساتنا اليوم، فهناك جهل كبير بالأنظمة من قِبَلِ الطلاب، وليس هناك اهتمام واضح لغرس أهمية النظام في نفوس الطلاب، ولا عناية كافية بإحاطتهم بالأنظمة في المؤسسة التي يتعلمون فيها، ثم إلزامهم بها، ومحاسبتهم عليها.

ولمّا ذكر موسى عليه السلام الصبر؛ وتعهد بالطاعة، شرط عليه العبد الصالح أنَّه إذا تبعه فينبغي له ألاَّ يبادره بالسؤال عن أيِّ شيء يراه أو يسمعه؛ حتى يبادر العبد الصالح ببيان ذلك حسب ما يراه مناسبًا.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس
الثاني والعشرون

رحمة الأنبياء

الحمدُ لله رَبِّ العالمينِ، والصلاةُ والسلامُ على المبعُوثِ رحمةً للعالمينِ، نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبه أجمعين، أَمَّا بَعد:

وصلنا سابقًا إلى الجانب العملي من هذه الرحلة العلمية العظيمة، ويتضح ذلك من خلال ما يأتي:

أولًا: قوله تعالى: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾(الكهف: ٧١)، هذه الكلمة (فانطلقا) توحي بسرعة البدء بالجانب العملي التطبيقي من الاتفاق على عملية التعليم، كما تدل عليه (الفاء) المشعرة بالتعقيب والترتيب، وكما أن كلمة (انطلقا) تدل بحروفها على الحركة السريعة للبدء المطلوب، وهذا يربّي في المتعلم من أول لحظة الجدّ وبذل الوسع، وتأتي كلمة ﴿ حَتَّىٰٓ ﴾ مباشرة بعد الانطلاق وهي تدل في الأصل على انتهاء الغاية، وقيل: بل (حتى) ابتدائية أشعرت بسرعة الخرق بمجرد ركوب السفينة، وفي قوله تعالى: ﴿إِذَا رَكِبَا ﴾ تدل على أن توقيت الخرق كان أول ما ركبا في السفينة، وأن ركوب السفينة كان القصد منه خرقها، لأنَّ الشيء المقصود يبادر به قاصده حال حلول وقته؛ لأنه يكون قد دبّر أمره من قبل، وبُنِيَ نظم الكلام على تقديم الظرف ﴿إِذَا ﴾ على عامله ﴿ خَرَقَهَا ﴾ دون أن يقال: فخرق السفينة لما ركبها، أو حين ركبها؛ للتدليل على أن الخرق وقع بمجرد الركوب، إذ أنَّ تقديم الظرف يشعر بالاهتمام فيدل على أنَّ وقت الركوب كان مقصودًا لإيقاع الفعل فيه، ويبدو أن في ذلك ما يثير تعجب ودهشة موسى عليه السلام، وقد يكون هذا مقصودًا من المعلم لتعليم وتدريب من يتعلم تحت يده، كما أن

تعدية الفعل (ركب) بحرف الجر (في) مع أن المتبادر أن يقال: ركبا على السفينة؛ للتدليل على أن ركوبهم كان داخل السفينة، فهم في جوفها، كما تشعر به دلالة (في) على الظرفية، وهم بذلك في مكان يكون الخرق فيه مؤثرًا؛ لأنهم في أسفل السفينة، ولو كان الخرق في أعلاها لما أثّر فيها شيئًا، كما أن لفظ (خَرَقَ) يُشعر بتعمد التخريب، وهذا يزيد في إثارة تعجب ودهشة موسى عليه السلام، وبهذا نعلم أنَّ هناك أسبابًا كثيرةً تدعو موسى عليه السلام للاعتراض والدهشة والسؤال عن الفعل وهو (الخَرْق): لأنه تخريب وإيذاء، الوقت: لأنه حصل بمجرد ركوبهم، ولو كان لمصلحة لما أمكن العبد الصالح معرفة ذلك لقصر الوقت، المكان: وهو أسفل السفينة كما تدل عليه الظرفية في (في).

ثانيًا: نحن هنا أمام حدثٍ كبير عظيم بكل تداعياته، نسيَ معه موسى عليه السلام الاتفاق الذي كان بينه وبين العبد الصالح، فبادر إلى إنكار المنكر، فقال: ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ ونلحظ هنا أنه قال: ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾، ولم يقل: لتغرقنا؛ لأنه عليه السلام قد أهمّه أمر الناس، وطغت عنده مصلحتهم على ما سبق الاتفاق عليه، فغلب على ذهنه هذا الحدث، وانشغل به عما سواه مما سبق الاتفاق عليه، والاستفهام هنا للإنكار، ومحل الإنكار هو العلّة ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾، وفهمنا من هذا أنَّ السفينة فيها ركّاب، وأنَّ الخرق سيؤدي إلى غرقهم، وهذا في ظاهره فيه إهلاك لأرواح الناس وممتلكاتهم، وهذا ما حمل النبي الكريم عليه السلام على الاعتراض، وهنا لمحة مهمة وهي أنَّ ما اتفقا عليه يعد من قبيل الكلام النظري، الذي قد يتغير بسبب الواقع وبالتطبيق العملي؛ فيكون له حينذاك وقعٌ آخر، فالتجربة العملية ذات طعمٍ مختلف عن التصوّر المجرد، لذلك يعمد بعض المعلمين إلى طريقة تمثيل الأدوار ليعيش المتعلم الحدث كما هو أو أعلى أو أقل؛ ليتصور جزءًا منه كما هو عليه في الواقع، لهذا نجد في موسى عليه السلام أنّه تعهّد عليه السلام بالصبر مهما حدث، لكن عند الواقع تغيرّ الأمر، يقول السعدي رحمه الله: «وهذا عزم منه، قبل أن يوجد

الشيء الممتحن به، والعزم شيء، ووجود الصبر شيء آخر، فلذلك ما صبر موسى عليه السلام حين وقع الأمر»[1].

ثالثًا: قوله: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾، واضحٌ من خطاب موسى هذا أنه استنكاري؛ لهذا أكثر فيه من المؤكدات التي تعطي كلامه ثقلًا معينًا يكشف عن مدى استيائه من هذا الفعل، فهذه (اللام) في ﴿لَقَدْ﴾ للقسم، و(قد) داخلة على الماضي؛ وهي تفيد التحقيق، والتعبير بـ(جئت) دون (عملت) أو (أتيت)؛ لأنَّ المجيء وإن كان بمعنى الإتيان إلاَّ أنَّه يختلف عنه في أنَّ الإتيان قد يقال باعتبار القصد، وإنْ لم يكن منه الحصول، وأمَّا المجيء فيقال اعتبارًا بالحصول، فهو أكثر دلالة على القصد في وقوع الشيء كما قال سبحانه: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾(الفرقان:٤)، أي: قصدوا الكلام وتعدوه، وعلى هذا فيكون ذكر المجيء هنا لإيضاح أن موسى عليه السلام رأى من العبد الصالح ما يُشعر بقصده لحصول هذا الفعل المنكر في نظره، وقوله تعالى: ﴿شَيْئًا﴾، جاءت كلمة (شيئًا) هنا لتكون موصوفة بالإمر، وهذا يزيد من تفظيع الأمر واستنكاره، ثم قال: إمرًا، والإمر هو: العظيم المفظع، وهو المنكر إذا كثر وكبر في نوعه، ونخرج من هذا الإنكار إلى شدة استفظاع موسى عليه السلام لما حدث أمامه، يقول ابن عاشور: «ولم يجعله نكرًا كما في الآية بعدها لأن العمل الذي عمله الخضر (العبد الصالح) ذريعة للغرق، ولم يقع الغرق بالفعل»[2]، بخلاف ما بعده فالقتل فيه قد حصل.

رابعًا:﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾(الكهف: ٧٢)هنا يجيب المعلم تلميذه المعترض عليه بصبرٍ ولطف، ويذكرّه بما كان بينهم من عهدٍ وشرط، والبدء بالسؤال (ألم) لاستثارة انتباهه ليكون معه، لما في السؤال من التنبيه من جهة، والتقرير بالمراد أو نفيه من جهة أخرى؛ لأنَّه سيجيب بنعم أو لا، والواضح من خطاب العبد

(١) تفسير السعدي (١/ ٤٨١)
(٢) التحرير والتنوير (٨/ ٤١٠)

الصالح في معاتبته وتذكيره لتلميذه أنه أعاد إليه العبارة التي قالها له في بداية اللقاء دون زيادة أو نقصان ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾، وهذا يُنْبِئ عن دقةٍ ووضوحٍ لدى هذا المعلم، فهو يقصد ما يقول لتلميذه، ويريد منه أن يعيَ ما يسمع تمامًا كما هو، وأن يدرك ما يترتب عليه من تبعات، ورغم ما كان عليه موسى عليه السلام من الاستنكار والغضب والاعتراض؛ إلاَّ أنَّ هذا السؤال التقريري أصاب المحك، وأعاده إلى ما ينبغي أن يكون عليه من الصبر والحلم، فنجده يعتذر مباشرةً ويقر بخطئه فيقول:﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾(الكهف: ٧٣)، وهذا دليل على اعترافه بالخطأ، ولكنه يطلب عدم مؤاخذته بالنسيان، فهو قد بنى كلامه على الطلب بعدم المؤاخذة بالنسيان، ولم يبنه على الاعتذار بالنسيان، وهو بهذا يرى نفسه محقوقًا بالمؤاخذة واللوم، فكان كلامه بديع النسخ في الاعتذار، لأنَّه بقوله هذا يربط المؤاخذة بالنسيان، لا بما تعمّد، ولا بما كان من خلقه وطبعه، ثم هو يطلب أمرًا آخر وهو ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾، والمعنى: إما أن يكون ولا ترهقني من أمري عسرًا بسبب ما حصل من خطأي ونسياني، وإمَّا لا تعاملني معاملة تشق عليَّ وتعسر، أي: لا تحملني من أمري (أي اتباعي إياك) عسرًا، أي: صعوبة، والمقصود: لا تعسّر عليّ متابعتك، بل يسّرها عليّ بالإعفاء والمسامحة، وهذا ملمح لطيف أن الطالب يمكن أن يوضح لمعلمه بعض ما يعاني من صعوبات في التعلم، أو ما يجد من صعوبات في طريقة معلمه، ليستفيد منه أكمل استفادة؛ وهذا من التواصل الجيّد بين العالم والمتعلم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس
الثالث والعشرون

أدب الإعذار

الحمدُ لله رَبِّ العالمينِ، والصلاةُ والسلامُ على المبعُوثِ رحمةً للعالمينِ، نبيّنا محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبه أجمعين، أمَّا بَعد:

وما زلنا مع هذه القصة العظيمة، مع العبد الصالح ومع موسى عليه السلام في قضية التعلم، ووصلنا إلى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ ﴾، ولنا مع ذلك وقفات:

أولًا: مجيء الفاء في قوله تعالى: ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾ تشعر بالسرعة، فبناءً على ما تم بينهما من اتفاق انطلقا، وبمجرد أن وجدا غلامًا قتله، كما يدل على ذلك (حتى) وقد سبق بيان ذلك، وهذه (الفاء) لم ترد في الحادثة السابقة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾، جاءت كلمة (خرقها) دون (فاء)، وهذا يدل على أن المبادرة المفهومة من تقديم الظرف (إذا) في قتل الغلام عند لقائه كانت أسرع من المبادرة بخرق السفينة حين ركوبها، وكلمة (لقيا) تُشعر بأن الغلام لم يتصرف بسوءٍ مع العبد الصالح ولا مع غيره مما يراه ويشاهده موسى عليه السلام، بل بمجرد ما لقيا هذا الغلام قتله، وهذا ما يجعل هذه الحادثة أعجب من سابقتها، وقوله تعالى: ﴿غُلَٰمًا﴾دليل على أنه صغير لم يبلغ الحُلم، بدليل قول موسى عليه السلام بعد ذلك ﴿نَفْسًا زَكِيَّةًۢ﴾ أي: طاهرة من الذنوب، والتعبير بـ(قتله) يشعر بالقسوة والشدة وعدم الرحمة، فلم يقل: جرحه

أو ضربه بل قتله، ولا شك أن قتل الصغير فيه من الشناعة ما يفوق قتل غيره، كما أن القتل ذاته جريمة كبرى عظمى، فكيف إذا حصل بلا مبرر، وقد ذُكر في صفة القتل أنه اقتلع رأسه بيده، وقيل: بل ذبحه بسكين، وقيل: بل رضّه بالحجارة بعد ما لقيه يلعب مع أقرانه، فاجتره من بينهم وفعل به ما فعل.

ثانيًا: لا شك أن هذا المنظر وهذا الجُرم يصعب السكوت عليه، وهو جريمة حقيقية واقعة لا متوقعة كما هو حال السفينة، لذا بادر موسى عليه السلام بالإنكار على نمط طريقته الأولى مع زيادة في حجم الإنكار، فقال عليه السلام: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾، وهكذا نجد النمط واحدًا، فأولًا ينكر عليه بصيغة استفهام إنكاري تعجبي ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ فهو هنا لا يسأل؛ بل يستنكر ويتعجب، ثم بعد ذلك يحكم على فعله بما يراه، وقد حكم عليه هنا بأنه شيءٌ نكر، وتعبيره بـ﴿نَفْسًا﴾ دون غلام لاستثارة مكامن الشفقة في نفس العبد الصالح، فهي نفسٌ حقها أن تصان وتحفظ، وقوله: ﴿زَكِيَّةً﴾ تعظيمًا لشأنها، فهي طاهرة نقية؛ لأنه غلامٌ دون الحُلم، وهذا يعظّم الجريمة، وقوله: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾، أي: بغير قصاص بنفس قتلت، فلزمها القتل قودًا بها.

ثالثًا: قوله: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ نلحظ هنا أن موسى عليه السلام علّل إنكاره هذا الفعل جاريًا فيه على طريقته من قبل مع تغيير يسير في بعض الكلم، وهذا يدل على أنه يعتمد في إنكاره وطريقة اعتراضه على منهجٍ موحد، والفرق بين ما ذُكر سابقًا في شأن السفينة وما ذُكر هنا أنه وصف الفعل السابق وهو خرق السفينة بأنه

شيء إمر، وهنا وصف القتل بأنه شيء نُكر، والنُكر: هو ما تنكره العقول وتستقبحه، وهو المنكر في الدين، وهو أعظم من الإمر؛ لأنّ هذا فساد حاصل والأول فساد متوقع، وعلى هذا تكون كلمة (نكر) أبلغ في تقبيح الشيء من الإمر، وقيل: بل الحوادث الثلاث الغريبة التي هي: خرق السفينة، وقتل الغلام، وبناء الجدار بلا أُجرة؛ لم تذكر على سبيل الترتيب في الشناعة والفظاعة، بل ذكرت بحسب ترتيبها ووجودها في الواقع، ولو تأملنا في هذه الحوادث لوجدنا ما يأتي:

خرق السفينة فيه إفساد جماعي، للسفينة من ناحية، وربما للأرواح من ناحية أخرى.

وفي قتل الغلام إفساد فردي.

وفي بناء الجدار إصلاح لا إفساد.

فهل لهذا علاقة بالتعليم والتدرج فيه؟.

الذي يظهر أن خرق السفينة هو الأهون لأنَّه إفساد متوقع لا واقع كما هو حال قتل الغلام، فهو واقع لا متوقع، وهذا ما يتناسب مع التدرّج في التعليم، خصوصًا أنَّ الهدف هنا هو قياس قدرة موسى عليه السلام على التَّحمُّل والصبر، والالتزام بالشروط في مواقف يجهل تفسيرها، وزيادة اعتراض موسى عليه السلام هنا يؤيد أن قتل الغلام كان أشنع في نظره من خرق السفينة، واعتراض موسى عليه السلام هذه المرة لم يكن عن نسيان، بل كان مقصودًا، ومع هذا يخاطبه العبد الصالح بهدوء، وبالطريقة نفسها

في المرة الأولى، وهذا يدلنا أيضًا على أن المعلم كان صاحب نهجٍ واضحٍ محدد؛ يعرف ماذا يقول وماذا يشترط، وثبات المعلم أمام المتعلم والتزامه بما تم التعاقد عليه يولّد لدى المتعلم الثقة الكافية بمعلمه، ويؤكد له أنّه صاحب مبدأ يقصد ما يقول، ويلتزم به، وهذه ميزةٌ وسمةٌ يكتسبها المتعلم من خلال الممارسة العملية من معلمه لها، مما ينعكس على منهجٍ كاملٍ في حياة الإنسان كلها، وهذا يوجب على المعلمين مسؤولية كبرى في ضبط تصرفاتهم وأقوالهم ووُعودهم.

رابعًا: في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ نجد هنا تذكيرًا من العبد الصالح لموسى عليه السلام بما سبق ذكره له، لكنَّه زاد له هنا كلمة (لك)، وإنما زادها في كلامه ليتناسب تذكيره مع زيادة استنكار موسى عليه السلام واعتراضه عليه، كما أن فيها تخصيصًا للقول واللوم، فكأنه يقول: ألم أقل لك خصوصًا، وهذا فيه إلماح إلى أنك خالفت الاتفاق أولًا، ثم ها أنت تخالفه ثانيًا، والآن اعلم أن الكلام لك لا لغيرك، وواضح من نوعية الكلام هنا أن هذا المربيّ المعلّم زاد في طريقة توجيهه لموسى عليه السلام بحسب ما رأى من خروجه على ما تم الاتفاق عليه أكثر من مرة.

خامسًا: قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾ نجد هنا الاعتذار من موسى عليه السلام، بل بادر إلى ذلك في طريقةٍ جديدة، واشتراط جديد؛ فهو لم يعتذر عليه السلام بالنسيان بل بادر إلى اشتراط جديد، فقال: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾. وقد جاء في الحديث

وصفًا لهذا الأمر قوله ﷺ: «كانت من موسى عليه السلام نسيانًا، والثانية شرطًا، والثالثة عمدًا»، ونجد في هذا الاشتراط من موسى عليه السلام أدبًا عظيمًا، وإنصافًا وعدلًا، فقد جعل لمعلمه العذر في ترك مصاحبته في الثالثة تجنبًا لإحراجه، وربما يكون في هذا اعتراف بحجم القدرات لدى موسى عليه السلام، فقد رأى أنه لا يتحمل شيئًا أعظم من هذا، وتقدير الإنسان لمكانته وقدراته أمرٌ مطلوب حتى يختار من العلوم ما يمتاز به ويبرز فيه.

وقوله: ﴿إِن سَأَلْتُكَ﴾ مع أنَّه ما كان يسأل من قبل بل ينكر ويعترض، وإنْ كان في صورة استفهام، ولعله إنما عدل إلى السؤال دون الاعتراض أو الإنكار، فلم يقل: إنْ أنكرت عليه، أو اعترضت؛ تأدبًا مع معلمه، وليكون أقرب إلى قبوله شرطه، إذ مجرد السؤال اليسير والاستفهام يوجب قطع العلاقة بينهما.

قوله: ﴿عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ هذه العبارة توحي بأن معلمه له الحق لو فارقه، وتوحي أيضًا بأنه سيعمل جهده ألا يسأل ولا يعترض.

وقوله: ﴿فَلَا تُصَٰحِبْنِى﴾ ربما يبدو هذا الكلام غريبًا؛ لأن المتوقع أن يقول: فلا أصاحبك؛ لأنه الذي طلب ذلك، بينما (تصاحبني) تشعر بأن العبد الصالح هو الحريص على الصحبة، ولعله إنما قال ذلك ليجعل القرار للمعلم، فهو الذي يقرر المصاحبة من عدمها، وهذا ما يتناسب مع الاتباع الذي طلبه في أول اللقاء، ولو قال: فلا أصاحبك، لكان هو الذي يحدد ذلك، والذي يليق بأدب العلم هو

الأول، وقال بعضهم: «بل المراد بكلامه هو الجزم بالترك والمفارقة، لا الترخيص بالترك من عدمه».

قوله: ﴿قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا﴾ (قد) هنا دخلت على الفعل الماضي بلغت، فدلت على التحقيق، أي: بلغت الغاية التي تُعذر بسببها في عدم مصاحبتي، حيث خالفت أمرك مرة بعد مرة، كما أن في التعبير عن تمام العذر وتعيّنه بالبلوغ ﴿بَلَغۡتَ﴾ ما يشعر بالوصول إلى الغاية، فشبّه العذر في قطع الصحبة بما كان ينتهي إليه السائر ويبلغه، وفي هذا إشعارٌ بأن العبد الصالح قد مضى مع موسى عليه السلام، وسار معه إلى قبول الأعذار إلى حد النهاية، أي: وصلت من جهتي إلى عذر، وهذا أيضًا فيه أدبٌ عظيمٌ مع معلمه، حيث قدّم له العذر لو ترك تعليمه بسبب عدم التزامه بالشروط المتفق عليها.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نفع الآخرين

الحمدُ لله رَبِّ العالمينِ، والصلاةُ والسلامُ على المبعُوثِ رحمةً للعالمينِ، نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبه أجمعين، أمَّا بَعد:

وما زلنا مع قصة العبد الصالح مع موسى عليه السلام في قصة التعليم والتعلّم، وقد وصلنا إلى قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾(الكهف: ٧٧) ولنا مع هذا عدة وقفات:

أولًا: هذا الجزء يصوّر الحادثة الثالثة والأخيرة، وهي ما يخص القرية وإقامة الجدار، وذكر كلمة (أهل) فيه دلالة أنهم تعاملوا مع الناس، وخالطوهم، وطلبوا الضيافة، وتنكير كلمة (قرية) دليلٌ على عدم العناية بتعيين تلك القرية؛ لأنَّه لا يتعلق بذلك فائدة، وقد يكون في ذلك ازدراء لها بسبب بخل أهلها.

قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَطۡعَمَآ﴾فيه تصوير لشدة ما بلغهما من الجوع الذي بسببه طلبا الطعام، ومن العادة ألاّ يطلب أهل المروءات الطعام، إلاَّ في أشد الحالات، أو لأنَّ العبد الصالح علم ببخل أهل هذه القرية، فأراد اختبار صبر موسى عليه السلام بذلك، مع أنَّ تثنية الضمير في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَطۡعَمَآ﴾ تشعر بأنَّ طلب الطعام حصل من كليهما، وهذا يعني بلوغ الجوع منهما كل مبلغ، وهذا أول ذكر للطعام بعدما عاد موسى عليه السلام مع

غلامه دون أكل في أول القصة، فهل يعني هذا أن الأحداث توالت بسرعة، وأنه إلى هذه الساعة لم يطعم، ولم يأكل، فكان عليه السلام شديد الحاجة إلى الطعام؟.

قد يؤيد هذا اختبار العبد الصالح لموسى عليه السلام بشأن بخل أهل هذه القرية بعد ذلك، أم أنَّ هذا يعني أنَّ الطعام لم يكن معهما في الأحداث السابقة، فلم يُذكر معهما؟ الله أعلم في كل ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَأَبَوْاْ﴾، الإباء هو: شدة الامتناع، وهذا يعني شدة البخل، وقوله تعالى: ﴿يُضَيِّفُوهُمَا﴾، بدلًا من يطعموهما، لأنَّ الضيافة أوسع من الطعام، فهي تشمل المبيت والطعام وحسن الاستقبال، ومع هذا فهما لم يطلبا من الضيافة إلاَّ الطعام، لكن هؤلاء البخلاء أبوا ذلك كله.

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ النظم الكريم يدل هنا على أنهما لما قوبلا بهذا البخل الشديد من أهل هذه القرية، والتنكّر لهما، فلم يساعدهما أحد، ولم يضيفهما أحد؛ وجدا -في هذه الأثناء وهما بهذه النفسية- جدارًا قد أشرف على السقوط، حيث مالَ يريد الانقضاض؛ فأقامه العبد الصالح بأن هدمه ثم بناه، فالنظم الكريم يدل على أنهما في حالةٍ شديدة للطعام والمساعدة، ولم يحصل هذا من أهل هذه القرية في هذه اللحظة التي تعرضا فيها لهذا الموقف، فلمَّا وجدا هذا الجدار على هذه الشاكلة أقامه العبد الصالح بأنْ هدمه ثم بناه، وقيل: بل مسحه بيده ثم استقام، فكأن فعله كان خارقًا للعادة، وقيل: لو كان كذلك لما استحق الأجرة التي يطالب بها موسى عليه السلام؛ لأنَّه

لم يفعل ما يستحق عليها الأجرة من التعب والجهد، وقيل غير ذلك، وكل هذا غير مهم لأنه طُويَ ذكره في القرآن، المهم هو أنه أقام الجدار وأصلحه لأناس لم يقدموا لهما عونًا، وهنا اعترض موسى ﷺ، لكنه هذه المرة أخرج اعتراضه بطريقةٍ ألطف من ذي قبل، ولم يكن في صورة سؤال كالمعتاد، بل جاء في صورة اقتراح مع شيء من اللوم ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾، ولو كان على الطريقة الأولى لقال: أتبني لهم جدارًا بلا أجر؟، أو نحوِ ذلك، وكان الكليم موسى ﷺ لَّما رأى الحرمان، ومساس الحاجة، والاشتغال بها لا يعني؛ لم يتمالك الصبر فاعترض، لأنَّه أراد مقابلة حرمانهم لحق الضيافة، بحرمانهم من إقامة الجدار في قريتهم إلاَّ بمقابل؛ لأنهما كانا في أمسِّ الحاجة إلى الطعام، وهذا حقٌّ لهما يُعذران في طلب مثله.

ثالثًا: ولعل موسى ﷺ قد ساق اعتراضه بهذه الصورة التي هي إلى الاقتراح أقرب منها إلى الاعتراض؛ لعله أنْ يحظى بفرصة أخرى بالمصاحبة، مع معرفة سبب ما فعل؛ لأنَّ عبارته وإنْ لم تكن سؤالًا صريحًا إلاَّ أنَّ السؤال يُفهم منها، لذا أعلن العبد الصالح الفراق؛ لأنَّه عدّ قول موسى ﷺ من قبيل السؤال.

والذي يظهر-والله أعلم-أنَّ موسى ﷺ استفاد من التوجيه في الحادثتين السابقين، فهاهو في السابقة يغيّر أسلوبه ونبرة حديثه، وطريقة اعتراضه، وهكذا يكون المتعلم الجيد يستفيد من خطئه ويتعلم، ولكن العبد الصالح لَّما رأى ذلك منه عرف أنَّه تعلم المراد وحصل المقصود، ويتم ذلك ويكتمل بتفسير الأحداث له، وهذا ما أراد الله عز وجل أن يكون بين موسى ﷺ والعبد الصالح، وقد تيّقن موسى ﷺ بأن هناك

من هوَ أعلم منه، وبهذا حصل المقصود، وإلاَّ فَعِلْمُ الله واسع، وقد قال النبي ﷺ: «وَدِدْنَا أَنَّ مُوسَى كَانَ صَبَرَ، فَقَصَّ اللهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا»[1].

رابعًا: ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾(الكهف: ٧٨)الظاهر من هذا القول أنه لم يكن بطلبٍ من موسى عليه السلام، بل جاء بمبادرة من المعلم -العبد الصالح- وهكذا يكون المعلم المربي يوصل لتلميذه وطالب العلم ما يراه نافعًا- حتى لو لم يطلبه- والملحوظ أنه بدأ معه بالصرامة المعهودة من أول لقاءيهما، إذ لما خالف الشرط قال: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾، بناءً على الاتفاق الأخير، ثم أخبره أنه سيفسر له ما فعل، وذلك كما وعده من قبل ﴿أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ وقوله هذا إشارة فيها تحديد للاعتراض الثالث الخاص بالقرية، ولم يقل: هذا فراق بيننا، بل قال: ﴿بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ إظهارًا للفراق الذي اختص به كل منهما.

قوله: ﴿سَأُنَبِّئُكَ ﴾ فيه تشويق لمعرفة سرِّ تلك الأحوال الغريبة، ولا شك أن ذلك سيخفف على موسى ألم الفراق، لأنه سيرجع بعلمٍ عجيب لم يعرفه من قبل.

قوله: ﴿بِتَأْوِيلِ ﴾، أي: بتفسير وبيان، وذكر التأويل يشعر بأن حقيقة الأمر في كل ذلك ليست هي على ما يتواءم ويظهر في الواقع.

خامسًا: قوله: ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ سبق تكرير هذه العبارة ذاتها، وقد قالها من قبل عدة مرات، وإنما ذكَّره الآن بذلك دون أن يقول له مثلًا: بتأويل ما

(١) صحيح البخاري (١٢/ ٨٨)

فعلتُ، أو ما رأيتَ؛ لإشعاره باللوم، وأن سبب الفراق هو تعجله وعدم صبره، وقد يكون الغرض من ذلك هو استثارة انتباهه بذكر ما كان سببًا في عدم صبره، فإن هذا هو ما أشغل نفسه عليه السلام.

سادسًا: قوله: ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ ﴾، (أما) هنا للتفصيل والتعداد، وهي تشعر بأن ما بعدها سيذكر في صورة تعداد وتفصيل، وقد بدأ بالسفينة جريًا على ترتيب الأحداث في الوقوع، وهذا أفضل في ثبوت المعلومة لدى الطالب، وتأخير التفسير إلى هذا الوقت، أي بعد كل هذه الأحداث؛ فيه إعطاء مساحة للتفكير لدى المتعلم كي يعرف العلة والسبب.

سابعًا: في قوله: ﴿ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ ﴾، كل ما ذكره العبد الصالح عن السفينة من أنها لمساكين، وأنهم يعملون في البحر، وأنه يريد عيبها؛ كل ذلك يزيد من دهشة موسى عليه السلام، لأن كلّ هذه الأسباب تدعوه للحفاظ على السفينة لا عيبها، وهذا ما يجعل أسلوب التشويق الذي سار عليه من قبل ما زال مستمرًا إلى هذه اللحظة.

ثامنًا: قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ هنا اتضح سبب عيبها، لذا قال: ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾، ولم يقل: فعِبْتها، تدليلًا على أن عيبَهُ لها كان لقصدٍ وعن إرادة، لا لمجرد العيب، وإلا لقال: فعبتها.

وقوله هنا: ﴿مَّلِكٌ﴾، نعته هنا بالمُلك للإشعار بالقوة التي تُرغم هؤلاء المساكين على الخضوع له، والإعلام بأنه لكونه ملكًا لا يهتم بالسفن المَعيبة، بل يبحث عما يليق بالمُلك.

وقوله: ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾، عبّر هنا بـ(الأخذ) للتدليل على الشدة والسطو.

قوله: ﴿كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ أي صالحة، بدلالة أنَّه إذا عابها فإن الملك يتركها، فهو إذًا يأخذ السفينة الصالحة، وقوله: ﴿غَصْبًا﴾: أي: بالقوة، وحذف الصفة من قوله (صالحة)، لبيان أن الاهتمام متوجهٌ إلى ما يمكن أن يسمى سفينة، وهي عند مقام الملوك لا يمكن أن تسمى سفينة إلا إذا كانت صالحةً مناسبةً لمثل مقامه، لهذا ذكرت كلمة (سفينة) دون ذكر كلمة (صالحة).

وبهذا نعلم أن العبد الصالح أعلمَ موسى عليه السلام أن النظر للأمر من جهة واحدة قد لا يكون كافيًا، وقد ينتج عنه سلوك غير صحيح، فموسى عليه السلام نظر إلى الخرق إلى أنه إفساد، والعبد الصالح لأنه قد أَحاط بذلك علمًا من الله رأى أنه نجاة، وهما ضدان، والسبب في ذلك هو طريقة النظر، والخلفية المعرفية المتوافرة عن ذلك الموضوع، أو تلك القضية عند كلٍ منهما.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس
الخامس والعشرون

صلاح الأبوين

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

سنقف مع آخر هذه القصة العظيمة لموسى عليه السلام مع العبد الصالح في قضية التعلم، ووصلنا إلى قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾(الكهف: ٨٠-٨٢) وسنتحدث في ذلك من خلال هذه الوقفات:

أولًا: قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ هذا بيان وتفسير لحادثة قتل الغلام، لكننا -هنا- لا نجد ذكرًا للقتل كما ذكر العيب مع السفينة، فقد قال: ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ أي: بالخرق، أمَّا هنا لم يذكر القتل، ولكنَّه ذكر سببه، وربما يكون هذا لشناعة القتل فتحرّج من تكرار لفظه، وهذا يشعر بأنَّ جريمة القتل أشنع من عيب السفينة، وقد يكون في عدم تكرار لفظ القتل إشارة إلى عدم تكرار الألفاظ ذات المدلول السلبي أمام المتعلمين.

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ هنا خروج بالخطاب إلى أطراف أخرى لم تكن موجودة أثناء الحادثة، فهو الآن يتحدث عن الأبوين (الأم والأب) في سبيل تعليل القتل، وفي هذا الشأن نتساءل ما علاقتهما بهذا؟ وهذا فيه تشويق للمتلقي ليصل إلى المعلومة بعد تشوف وتشوق، وهذا أثبت لها، وقد سبق مثل هذا من قبل عدة مرات،

وذكر صفة الإيمان في الأبوين، والتعبير بـ(كان) للتدليل على عراقتهما وقِدمهما في الإيمان، فهو ليس شيئًا حادثًا، والتعبير بالإيمان دون الإسلام، فلم يقل: (مسلمين)؛ لأنَّ الإيمان درجة أخص من الإسلام، وهذا يدل على صلاح الأبوين جميعًا، وقوله تعالى: ﴿ أَبَوَاهُ ﴾، دون تفريق بأنْ يقال: وكان أبوه وأمه؛ للتدليل على أنهما في مرتبة الصلاح والإيمان سواء، وإنما غُلِّب لفظ الأبوّة على الأمومة على ما تقتضيه اللُّغة.

ثالثًا: قوله تعالى: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا﴾ جاء ذكر الخشية دون الخوف؛ لأن الخشية خوفٌ يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون عن علمٍ بما يُخشى منه.

وقوله تعالى: ﴿طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا﴾ أي يغشاهما بشدة وقهر، طغيانًا أي: تجاوزًا للحد، كفرًا بالله، وقيل: إنما ذكر الطغيان أولًا لبيان أنَّ تأثيره عليهم سيبدأ بالطغيان والتجبّر وينتهي بالكفر.

رابعًا: قوله تعالى: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾، التعبير بالإرادة دليل النفع وجلب الخير، وإنما جاء اللفظ -هنا-أردنا وخشينا بضمير الجمع دون الواحد كما سبق في السفينة ﴿فَأَرَدتُّ﴾ إمَّا لأنَّ تصرف العبد الصالح في السفينة بُنِيَ على رعاية المصالح والمفاسد وتقديرها؛ فهو في محيط العقل وما يقتضيه المنطق، فليس شرطًا أن يتعلق بعلمٍ غيبي، وإمَّا أنَّ ما ذكره بشأن السفينة وهو عيبها؛ هو صفة نقص وضرر، فلم ينسبها إلى الله تنزُّهًا ورعاية للأدب مع الله عز وجل، أمَّا مع الغلام والأبوين فإنَّ تصرفه يتعلق بأمرٍ مستقبلي من علم الغيب لذا قال: ﴿فَأَرَدْنَآ﴾ ﴿فَخَشِينَآ﴾ على سبيل التعظيم لأنه علم خصَّه الله به، وهو مثل قول خواص الملوك: أمرنا بكذا وكذا، وإنما يعنون أمر الملك العظيم، وفي قوله: ﴿يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ بشارة للوالدين بالعوض الحسن بدلًا من ذلك الغلام الذي سيملأ حياتها-لو عاش-جحيمًا وكفرًا، وقوله: ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ أي: طهارة، وهو مناسبٌ لقول موسى في اعتراضه: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾، وقوله: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أي: أكثر عطفًا وبرًا، وهذا ما يريده الوالدان من ولدهما، صلاح وبر، وفي هذا إشارة

إلى أنّه يجب أن تتوجه وسائل تربية الوالدين لولدهما إلى هاتين الغايتين العظيمتين.

خامسًا: قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ وفي هذا استثارة لمكامن الشفقة والعطف كما يشعر بذلك لفظ (الغلام) و(اليتيم)، وهذا ما يدعو لمساعدتهما والوقوف معهما، حتى لو كانا ضمن أهل هذه القرية المقصودة كما يدل عليه قوله: ﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾، ويظهر من هذا أنّه يسعى إلى تربية هدفٍ وجداني يتعلق بالعطف والشفقة لهذا الصنف من الناس، وهم الأيتام، وإنما سمَّاها هنا (مدينة)، ومن قبل قرية لإظهار الاعتداد بها، ورفع شأنها عند ذكر اليتيمين فيها، فمع اليتيمين ذكر لفظ ﴿ٱلْمَدِينَةِ﴾ ومع البخل ذكر لفظ القرية، وهذا من أعجب اللطائف في اختيار الكلِم مع ما يتناسب معه، وقوله: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ إنما ذكر ذلك ولم يكتف بذكر اليتم لأنَّ ذلك لا يفسر كل أسباب إقامة الجدار، فيكون في بيانِ أن تحته كنزٌ لهما ما يفسّر جزءًا آخر من ذلك، فالكنز تحت الجدار ولو سقط لظهر، وربما يُؤخذ منهما، وربما يحصلان عليه قبل الأوان المطلوب فيكون وبالًا بدلًا من أن يكون عونًا لهما.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ قوله هذا يزيد من تفسير ما حدث، فذكر صلاح الأب هنا فيه دلالة على أن لذلك علاقة بحفظ الله لأولاده وذريته، وفي هذا دعوة لعناية الإنسان بإصلاح نفسه، وأنَّ لذلك أثرًا في جلب الخير لذريته من بعده.

سادسًا: في قوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾، قوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ هنا أسند الإرادة إلى الله ومن قبل ﴿فَأَرَدتُّ﴾ ﴿فَأَرَدْنَآ﴾ وقد قال ابن عاشور في هذا الأمر: «وقد أسند الإرادة في قصة الجدار إلى الله تعالى دون القصتين السابقتين لأنَّ العمل فيهما كان من شأنه أنْ يسعى إليه كل من يقف على سره، لأنَّ فيهما دفعًا لفساد عن الناس؛ بخلاف قصة الجدار فتلك كرامة من الله لأبي الغلامين»(1)، وإسناد الإرادة إلى الرب مع إضافة الرب إلى ضمير موسى عليه السلام دون ضميرهما فلم

(١) التحرير والتنوير (٨/ ٤١٩)

يقل: فأراد ربهما؛ للتنبيه على تحتم كمال الانقياد والاستسلام لإرادة الله سبحانه، الذي هو ربك يا موسى، كأنَّه قال: إنها إرادة ربك يا موسى، وذكر الربوبية هنا لأنَّ فيها من معاني التربية والعطاء والحياطة ما يتناسب مع حال اليتيم والحاجة.

قوله: ﴿أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ قيل: يبلغا الحلم، وقيل: كمال الرأي أو القوة، وهذا ملمح في التربية؛ وهو تأخير تصرف الغلمان في المال؛ لأنَّه قد يكون سببًا في شقائهما لو حصلا عليه قبل كمال الرأي.

قوله: ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ فيه إلماحة أخرى أن المطلوب أن يبحثا عن الكنز ويباشرا إخراجه حتى يشعرا بقيمته، لأنَّ ما يأتي سهلًا يذهب سهلًا؛ لأنَّ الاستخراج يُوحي بالطلب والجهد بخلاف الإخراج.

قوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: أراد سبحانه ذلك رحمةً منه بهما، وفي هذا إلماحة إلى أنّه ينبغي رحمة الضعفاء ومساعدتهم، وتكرير وصف الربوبية هنا لمزيد من لفت النظر للعناية بشأن الأيتام والمحتاجين.

قوله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ أي: بل فعلته عن أمر ربي، وأضاف العبد الصالح ذلك إلى الله ﷻ، وبهذا انكشف السر لموسى عليه السلام، وأضاف العبد الصالح ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ وفيه تعريضٌ وتذكيرٌ بسبب تفويت العلم عليه؛ وهو عدم صبره، وهنا ملمح تربوي أنَّ المعلم رغم مخالفة تلميذه له إلا أنَّه لم يحجب عنه العلم والفائدة، كما أنه لم يتركه دون بيان بل فَسَّرَ له ما لم يعرف حتى اقتنع، ولم يفارقه إلاَّ بعد أنْ أكملَ البيان على أفضل صورة.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس
السادس والعشرون

التأمل

الحمدُ لله رَبِّ العالمينِ، والصلاةُ والسلامُ على المبعُوثِ رحمةً للعالمينِ، نبيّنا محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبه أجمعين، أمَّا بَعد:

حديثنا سيكون عن آية تدعو إلى التفكر والتأمل، والتدبر في الكون المنظور، من خلال كلام الله عز وجل المسطور، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾(النور: ٤٣)، سنقف مع قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾، حديثنا سيكون حول هذه الآية من نقاط عدة.

أولًا: أنها بدأت بقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ وفي هذا لفت للنظر، والتأمل الذي يصل بالإنسان إلى درجة الرؤية، والرؤية كما هو معلوم من أعظم وسائل يقينيات الإنسان؛ لأنه يرى ذلك بعينه، ولهذا لم تأت كلمة (ألم تعلم)، أو (ألم تنظر)، بل قال ﷻ: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾، والخطاب هنا لنبينا محمد ﷺ.

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ﴾ التعبير بالإزجاء هنا فيه بيان لِلُطفِ معنى هذه الكلمة وتناسبه مع السحاب، فالإزجاء هو سوق الشيء برفق من جهة، وهو سوق الشيء الثقيل ببطء من جهة أخرى، وهو سوق الشيء بالسهولة من جهة ثالثة.

وهذه المعاني ورد بعضها في قول الطفيل الغنوي:

تزجي أغنّ كأن إبرة روقه   قلمٌ أصابَ من الدوابِ مدادها

فهو يصف غزالة وأمامها أغن، أي ابنها الصغير، تزجيه أي: تدفعه أمامها برفق، فقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ﴾، نجد أن المعاني السابقة كلها فيه، فالسحاب ثقيل من جهة، وهو سهل وميسر على الله وعز وجل من جهة أخرى، والله عز وجل يسوقه بلطفٍ وسهولةٍ ورفق.

ثالثًا: قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ﴾ هذا السحاب الذي يسوقه الله عز وجل بقدرته، بسهولة وبقصدٍ، هذا السحاب يتجمع ويتألف من هنا وهناك بقدرة الله ﷻ.

وهذا ما تصوره بدقة كلمة ﴿ يُؤَلِّفُ ﴾، وذلك يشعر بأن السحاب كان متفرقًا، وأنه في تلك الحالة لا ينزل منه المطر، وإنما ينزل منه مطر بعدما يصل إلى هذه المرحلة الواردة في قوله تعالى ﴿ يُؤَلِّفُ ﴾.

رابعًا: في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا ﴾ نفهم من قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا ﴾ وجود أحوالٍ ثلاثةٍ للسحاب، هي الإزجاء والسوق والتجميع والتأليف، ثم بعد ذلك يجعله ركامًا، فالرُكامُ هو آخر هذه الأحوال، وهذا النوع ثابت علميًا في تقسيم السحاب؛ لأن السحاب أنواع، ومن ضمن أنواعه السحاب التراكمي، ولا يخرج البرد إلا من السحاب التراكمي بقدرة الله عز وجل، لذلك قال الله تعالى:﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا ﴾، فرتب على كونه ركامًا أنه يخرج منه البرد، كما سيأتي ذكره -إن شاء الله-.

وفي قوله تعالى: ﴿ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا ﴾ دليلٌ على التصيير والتحويل من حالةٍ إلى حالة.

خامسًا: قوله تعالى: ﴿ فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾ الودق هو: المطر الذي يخرج من خلال السحاب الكثيف، وهذه تسمية الله عز وجل له.

انظر إلى لطف اللفظ القرآني الودق، والمطر شيء لطيف جميل، فيُعبرّ معه بالشيء اللطيف الجميل مثله، وهذا من روعة القرآن في اختيار هذه اللفظة ﴿ فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾ أي: من وسطه، ومن فُتُوقه التي فيه، وهذا يدل على أنه يوجد فتوق في هذا السحاب الركامي، وإن لم نره، لأنه ورد ذكره في القرآن العظيم.

سادسًا: في قوله تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ وليس المقصود هنا السماء التي في الأعلى، بل إنما المقصود السحاب، لأن السحاب يعتبر الآن سماءً، وكل ما علا وارتفع في لغة العرب يسمّى سماءً.

سابعًا: في قوله تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ ﴾ هنا ذكرٌ للجبال والبرد، ونحن نعرف الجبال في الأرض، أما في السماء فهذا أمرٌ عجيب تلفت الآية أنظارنا إليه، ولذلك جاءت ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾، كما أننا لا نرى من تلك الجبال المكونة من السماء إلا قاعدتها، أما القمة فلا نراها، ولو رأيناها لعلمنا قدرة الله ﷻ، ولدخل الخوف ورقابة الله في قلوبنا.

فلما سارت الطائرات، ومر الناس من جانب السحاب رأوا جبال سابحة في السماء، والعجيب أن الجبال السابحة في السماء أعظم من أكبر جبال الدنيا، فأكبر جبال الدنيا التي نعرفها هي الموجودة في الهميلايا، وأعلى نقطة فيها هي نقطة إيفرست، وهي تعلو ما يقارب تسعة آلاف متر فوق سطح البحر، فكم يتوقع المسلم ارتفاع هذه الجبال الركامية في السماء فوق رؤوسنا؟.

قاعدة هذه الجبال قد تبعد عن الأرض ثلاثة آلاف متر فقط، بينما ارتفاعها يصل إلى عشرين كيلو متر في السماء، وهذا يعني أن أعلى قمة في العالم لا تساوي نصف هذا الجبل الركامي من الماء، وهذا دليل على عظم القدرة الإلهية التي حفظت هذه الأثقال السابحة في السماء، وهنا نلحظ المناسبة بين ذكر الطير، وصفة الصف فيه خاصة، دون

صفات أخرى قبل هذه الآية، لما بين الصورتين من إمساك أجرام في الهواء دون أسباب مادية واضحة يراها الناس، ولكن هذه هي قدرة الله عز وجل، وقد تكون هذه القدرة أعجب من القدرة الأولى، لأنه في الأولى كان حجم الطائر صغيرًا، ويمسكه الله عز وجل أن يقع، أما الثانية فهو ثقيل جدًا بالماء المتجمد فيه.

فسبحان من يمسكها على ثقلها، ولكن هل تفكّر الإنسان فيها؟ وهل عرف ضعفه وقدرة الله ﷻ؟ حتى إنه لو نزل جبل واحد من هذه الجبال الهائلة السابحة في السماء، الواقعة فوق رؤوسنا، لأهلك الناس!

ولذلك قال الله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ دون (ألم تعلم)، وفي هذا لفت لأنظارنا لهذا الأمر العظيم، وفي قوله تعالى: ﴿ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ ﴾، دخول من هنا في الموقعين للتدليل على أن ذلك من بعضها، أي: من بعض الجبال، ويَنزل فيها بعض البرد، ولو نزل كل البرد لربما هلك الناس.

ثم يقول الله عز وجل: ﴿ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ﴾، فهذا من فضل الله عز وجل ورحمته، فهو يخوِّف به عباده، وينفع به من يشاء من عباده، والأمر كله لله ﷻ أولًا وآخرًا.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس السابع والعشرون

تلقي الشائعات

الحمدُ لله رَبِّ العالمينِ، والصلاةُ والسلامُ على المبعُوثِ رحمةً للعالمينِ، نبيّنا محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبه أجمعين، أمَّا بَعد:

حديثنا سيكون بمشيئة الله تعالى هو قوله تعالى عن شائعة الإفك: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾(النور: ١٥).

في هذه الآية العظيمة تصويرٌ عجيب لدقائق شأن الشائعات، وكيفية تلقّي الناس لها، وإذاعتهم لها بعد ذلك، ولعل هذا الأمر يتضّح من خلال هذا التحليل لمضمون هذه الآية الكريمة.

أولًا: مجيء كلمة ﴿إِذْ﴾ في مطلع هذه الآية؛ يشعر بلحظة تلقّي الخبر، وأنها لحظةٌ حاسمة، يختلف الناس في التعامل مع الخبر بحسب هذه اللحظة، ولذلك جاء ذكرُ توقيت تلقّي الإنسانِ للخبر في بداية هذه الآية الكريمة.

ثانيًا: التعبير عن سماع الخبر بالتلقي، فقال ﷻ: ﴿تَلَقَّوْنَهُۥ﴾؛ بدلًا من تسمعونه، مع أنَّ جُلَّ الشائعات يكون تلقيها عن طريق السمع، وأداة ذلك هي الأُذن كما لا يخفى، ولكن في ذكر التلقّي هنا دلالة لطيفة؛ إذ فيه إيماءٌ إلى شوق المتلقي لما يتلقّى، فكأنَّ هناك أناسًا متعطشين لمثل هذه الشائعات، يبحثون عنها، ويتلقفونها، فإذا حصل لهم ما يريدون تلقوها تلقي الأهل لغائبهم، ففي التعبير بالتلقي دلالة على استعداد المتلقي وترحيبه بما سيأتي، وهذا يُنْبِئ عن مرضٍ في بعض القلوب، وخصوصًا ما كانت من الفئة الحاقدة على

الدين وأهله، ولعلنا نلحظ هذا التلقي أحيانًا في تلقف أخبار الأخيار، وتصيُّد أخطائهم، ونشرها وتكبيرها؛ على ما يرى الناس ويسمعون.

ثالثًا: صيغة ﴿تَلَقَّوْنَهُۥ﴾ مصوّرةٌ للجهد المبذول من متلقّي الخبر، فهو (تَفعّل) مثل التصبُّر، فهو عن قصدٍ من جهة، وهو يُجْهدُ من جهةٍ أخرى، وهذا من أعجب ما يكون في الإنسان؛ حيث إنَّه يصرفُ همته، ويشغلُ نفسه، ويبذلُ جهده في ملاحقة شؤون الناس، وتلقف أخبارهم، وقد يكون في هذه الصيغة دلالة على تَنقُّل الأخبار بين الناس، بل بين هذه الفئة خصوصًا، وقد جاء عند ابن كثير في تفسير هذه الآية، أو هذه الكلمة خصوصًا أن قال: «يرويه بعضكم عن بعض»[(١)].

رابعًا: جاءت كلمة ﴿تَلَقَّوْنَهُۥ﴾ محذوفة (التاء)، والأصل (تتلقونه)، وفي هذا تصويرٌ لسرعة التلقيّ؛ بسبب تلهّف السامع لسماع الخبر والشائعة، وإذاعته لها.

خامسًا: كانت عائشة تقرأ هذه الآية؛ كما في صحيح البخاري (إذ تَلِقُونَه بألسنتكم)، وتقول: «هو من وَلَقِ اللسان»، يعني: الكذب الذي يستمر صاحبه عليه، وعند العودة إلى مرجع هذا الضمير (الهاء) في قوله تعالى: ﴿تَلَقَّوْنَهُۥ﴾؛ نجده يعود على حادثة الإفك، وعلى قول الإفك المذكور قبلَ هذه الآية بآيات، والإفك كما هو معلوم هو: الكذب والبهتان، وهذا يعني تلاقي المادة مع المعنى المراد إبرازه هنا.

سادسًا: قوله تعالى: ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾، نلحظ فيه كيف كان تلقي الخبر باللسان، مع أنَّ اللسان ليس هو الأداة لتلقي الأخبار، بل الأداة المعنيّة بذلك هي الأذن، ومع هذا لم يكن النظم الجليل: إذ تلقونه بآذانكم، بل بألسنتكم، لما في ذلك من تصوير اختلال موازين التلقي عند هذه الفئة الراغبة في الشر، ونشر الشائعات المغرضة بين الناس، فكان في ذكر

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٨)

التلقي باللسان بيانٌ أن هذا الخبر الذي تتلهفون له، وتتلقونه تلقي الغائب؛ لم يمر من قنواته التي تضمن سلامته، أو سلامة التعامل معه؛ وهي: الأذن، ثم العقل، ثم بعد ذلك اللسان، بل إن الذي حصل هو تلقي من اللسان إلى اللسان، فما أدق هذا التصوير لحال كثير من محبّي نشر الشائعات.

سابعًا: مجيء هذه الكلمة مجموعة ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾، وكذلك قوله تعالى: ﴿بِأَفْوَاهِكُم﴾، فيه ملمحٌ لكثرة الفاعلين لهذا الأمر، ولانتشار ذلك بين الناس، وإلا لقيل: إذ تلقونه باللسان، وتقولون بالفم، ويؤيد هذا إضافة ذلك إلى مخاطبين، ليكون ذلك أكثرَ حضورًا وواقعية.

ثامنًا: في وقوع قوله تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ﴾ مباشرة بعد قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ﴾ دليلٌ على سرعة السعي في نشر الخبر، وعدم عرضه على محك الدين والعقل، وفي التعبير بالمضارع ﴿وَتَقُولُونَ﴾ دليلٌ على تجدد ذلك منهم في غير مرّة.

تاسعًا: في مجيء مادة القول ﴿وَتَقُولُونَ﴾، دون تنشرون، أو تذيعون مثلًا؛ للدلالة على تفوههم بهذا الخبر المنقول، وإجرائهم ذلك الخبر السيئ على ألسنتهم، وهذه خطيئة أخرى زيادة على خطيئة التلقي التي ذكرت سابقًا.

عاشرًا: قوله تعالى: ﴿بِأَفْوَاهِكُم﴾ تأكيدٌ لحصول القولِ منهم، وذلك لأنَّ ذِكرَ القول يغني عن ذكر هذا القيد ﴿بِأَفْوَاهِكُم﴾؛ لأنَّه من البَدَهي أنَّ القول سيكون بالفم، وفي النص على ذلك زيادة على التأكيد المذكور لطيفة أخرى؛ وهي أنَّ المذكورَ-هنا-هو الفم، لا اللسان، فعلمنا من ذلك أن التلقي كان باللسان؛ والإخراج كان بالفم، وهذا يعني أنَّ وسيلة التلقي لم تكن هي الوسيلة المناسبة؛ ولا الصحيحة، وكذلك طريقة الإخراج، لم تكن هي الطريقة الصحيحة؛ ولا السليمة.

وقد دلّ ذكر الفم في الإخراج على أنَّ حجم الشائعة قد تضخم في نفس هذا المتلقي، حتى ما قدر اللسان الذي تلقاها على إخراجها؛ لأنه زاد فيها من مروياته، أو تحليلاته، أو كذبه، أو زوره، حتى أصبح اللسان عاجزًا عن حملها، فكان لابد أن يتآزر الفم بجميع مكوناته؛ بما فيها اللسان لحمل هذا العبء الثقيل ليخرجه مرة أخرى.

ولك أن تتأمل-أيها المؤمن بربه-حجم هذه الشائعة التي هذا وصفها، وكم سيكون تأثيرها في الناس، وهذا الأمر من التلقّي إلى الإخراج بهذا التصوير العجيب هو تجسيد دقيق لواقع محبي الشر، ومتلقّي السوء، وناقليه، فاحذر أن تكون منهم.

ولعلنا نكتفي بهذه اللمحات حول هذه القضية، لأترك الباقي لنظرك وتأملك أيها المؤمن بربه، والله يحفظك ويرعاك.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس الثامن والعشرون

﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

حديثنا اليوم سيكون بمشيئة الله عن خُلُقٍ رفيع جاء واضحًا في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴾(فصلت: ٣٤).

إنه خلق التجاوز، ومقابلة الإساءة بالإحسان، في اختيار واقتدار، ومن ذا الذي يسمو إلى هذه القمم، ليحصل له شرف العملِ بهديِ هذا القرآن العظيم، في أمرٍ له مساس كبير بعلاقاتنا، لذا قال ﷻ بعد هذه الآية: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴾(فصلت: ٣٥)، وسنقف مع هذه الآية وقفات عدة، نستجدي بعض دلالاتها على هذا الخلق الراقي، الذي نتمنى أن يتخلق به الجميع، وذلك كما يأتي:

أولًا: نلحظ أن الآية بدأت بنفي الاستواء بين الحسنة والسيئة، وذلك لتقرير الاختلاف من أول الأمر بينهما، ومثل هذا الأسلوب غالبًا ما يراد به تفضيلُ أحد المذكورين على مقابله، وهذا وإن كان معلومًا للناس؛ إلا أنه حَسُن هنا، ليكون كالتوطئة والتمهيد للأمر بما سيأتي، مما لم تألفه النفوس من مقابلة السيئة والحسنة.

ثانيًا: ذكر الحسنة والسيئة بالمصدر (حسنة) (سيئة) دون فاعلهما بأن يقال: المحسن، والمسيء، وذلك لصرف الذهن إلى أن العناية هنا هي بنوع الخلق، أكثر من العناية بفاعله،

إضافة إلى ما في دلالة المصدر من المبالغة العظيمة في تأويل شأن هاتين الصفتين، حتى لكأن كل فريق مما يتصف بهما قد بلغ الغاية في جنس وصفه بالإحسان، أو بالإساءة، كقولنا: (فلان عدل) بالمصدر، ونحن نريد فلان عادل.

ثالثا: تكرار نفي التساوي بتكرار لا، مع أنها قد حذفت في غير هذا الموضع، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾(فاطر:١٩)، وذلك لتأكيد التخالف بين الصفتين الذي أشرنا إليه سابقًا، وذلك بنفي كلٍ منهما على حده، كما أن تكرار (لا) قد أومأ إلى كلام محذوف تقديره: ولا تستوي الحسنة والسيئة، ولا السيئة والحسنة، ولعلك تلحظ –أيها المؤمن بربه– كيف وَفَّى النظم القرآني بهذا المعنى بأقصر عبارة وأبلغها وألطفها، فكان هذا الحذف هو البلاغة، فسبحان مَنْ هذا كلامه.

رابعًا: نلحظ من خلال كل ما سبق كيف تهيأت النفوس لتلقي هذا التوجيه الرباني العظيم، للاتصاف بهذا الخلق الرفيع، الذي ربما لم تألفه النفوس، فكأنه قيل: إذا كانت الحسنة في القمة، والسيئة في السفح، فلا تقارب بينهما، وإذا كانت الحسنة ممدوحة كل هذا المدح، والسيئة مذمومة كل هذا الذم، فعليك –أيها المؤمن بربه– أن تختار العلو والقمة، والممدوح لا المذموم، لذا جاء بعدها مباشرة ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، وما أجمل هذا الأسلوب في غرس القيم، والدعوة إلى الفضائل، وما أكثر قبوله، وما أحسن تفاعل النفس معه، فهل يستفيد المربون من هذا الأسلوب؟.

خامسًا: قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

وإن كان المخاطب بها هو الرسول ﷺ؛ إلا أنه خلق رفيع مطلوب من كل أفراد أمته ﷺ، لأنه يعد من أعلى الكمالات البشرية، قال الله في وصف المؤمنين: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾، وقد يكون في توجيه الخطاب إليه ﷺ مع أنه تربية للأمة كلها تسهيل

للتخلق بهذا الخلق الذي قد يصعب على النفوس، إذ إنه يتعارض مع طبيعة الانتقام وأخذ الحق عند الإنسان، فإذا حصل هذا الخُلق من خير الخَلق سهل على الأتباع فعله.

سادسًا: نجد في قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ﴾ بفعل الأمر، من مادة (دفع)؛ ما يشعر بثقل هذا الأمر على النفوس، لأن المدفوع عادةً ما يكون ثقيلًا، وأصل مادة الدفع هي لتنحية الشيء، فكأن المحسن ينحي السيئة ويزيلها عن طريقه أولًا، ومن نفسِ صاحبها ثانيًا، بفعل الحسنة، وتقديمها إليه، وهذا الأمر شاقٌ صعبٌ على النفوس، لذا ناسبه فعل الدفع.

يقول ابن القيم ﵀ عن هذا الخلق، «وهو من أصعب الأسباب على النفس، وأشقها عليها، ولا يوفق له إلا من عظم حظه من الله»[(١)].

سابعًا: قوله تعالى: ﴿بِٱلَّتِى﴾ فيه لطيفة جميلة تتعلق بحرف الجر الباء، والحروف الجر عمومًا شأنٌ عظيم في كتاب الله، وأسرارٌ دقيقة لابد من التنبه لها، ولعلنا نبين ذلك من خلال الحديث عن هذه (الباء).

إن الباء في أصل معناها تدل على المصاحبة والإلصاق، ولذلك عُديّ الفعل بها هنا، دون أن يقال مثلًا: ادفع التي هي أحسن، أي: أعطها، أو ادفع السيئة، بدون حرف جر، لما في الباء من الإشعار بأن الدفع لابد أن يكون المصاحب له هو التي هي أحسن، فليس المطلوب أي دفع، بل المطلوب هو أن يكون بالتي هي أحسن، حتى كأنه لو خلا من هذا الأمر المذكور، أو صحبه شيء آخر غيره، لم يؤد هذا الدفع النتيجة المرجوة، ويؤيد هذا أن المدفوع به أمرٌ خاصٌ محدد، كما يدل عليه التفضيل ﴿أَحْسَنُ﴾، والموصول على ما سيظهر بيانه إن شاء الله.

(١) بدائع الفوائد، (٢ / ٤٦٨)

ولو كان المراد هو مجرد الدفع لقيل: ادفع السيئة، أي بأي دافعٍ كان، ومن ذلك مثلًا الإعراض، أو الانصراف من الموقف، أو غير ذلك، لكن ما هاهنا أعلى من ذلك وأَجَلّ، وهو مقابلة الإساءة بالإحسان.

ثامنًا: قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُ﴾.

نلحظ فيه كيف جاء التعبير عن الحسنة في الموصول (التي)، دون الوصف المباشر (الحسنة)، بأن يقال: ادفع بالحسنة، وذلك لما في الموصول من دلالة أصالة الحسن المذكور، حتى لكأن المدفوع به أمرٌ معروفٌ حُسنه للناس، إضافة لما في الموصول من إمكانية إجراء أوصافٍ مادحة من خلال صلته، على أبلغ وجه وأتمه، فأنت تلحظ أن قوله تعالى: ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُ﴾ أعظم بيانًا للمطلوب المرغوب من لو قيل: الحسنة، أو الأحسن، أو الحسنى.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس
التاسع والعشرون

﴿ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

في قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ تذكير بما سبق بالتفريق بين الحسنة والسيئة، وهذا هو الوجه التاسع إتمامًا لما سبق، ونجد في ذلك أيضًا دعوةً إلى أن المطلوب هو الدفع بالحسنة، ولكنها صيغت هنا بالموصول والضمير ﴿هِيَ﴾، وأفعل التفضيل ﴿أَحۡسَنُ﴾، فقيل: ﴿ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ ترغيبًا في دفع السيئة بها، وترقيةً للمتصف بهذا الخلق الجليل إلى سماء الفضائل والكمالات، ولا يدرك ذلك إلا من عايشه، فمن ذا الذي يصبر عن الانتقام للنفس؟ ثم من يجازي من أساء إليه بحسنة؟ ثم من يعتلي القمة في ذلك كله، فيتجاوز هذه الأمور كلها؛ فيجازي الإنسان الذي أساء إليه بالتي هي أحسن؟

إن الإنسان أحيانًا وهو يستعرض مثل هذه المعاني الجليلة في كلام ربنا جلت قدرته، ثم ينظر إلى الواقع؛ فقد يبدو في أول الأمر أنه يتحدث عن أحلام وسنان، أو خيالات شاعر، لكنها في حقيقة هذا الدين مبادئ حقيقية طبقها المأمور بها ﷺ، فنحن نعلم أنه آذاه قومه ﷺ، وضربوه، وقاتلوه حتى أدموه، فجعل يسلت الدم عن وجهه في ذلك المقام العصيب ويقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[1]، تأمل معي – أيها المؤمن بربه– هي كلمات أربع قالها النبي ﷺ قد جمعت مقامات الإحسان الأربع، في مقابل الإساءة العظمى له ﷺ من قومه، تلك المقامات العظمى هي:

(١) صحيح ابن حبان (٣/ ٢٥٤)

أولًا: العفو.

ثانيًا: الاستغفار لهم.

ثالثًا: الاعتذار عنهم بأنهم لا يعلمون.

رابعًا: الاستعطاف بإضافتهم إليه، فقد قال: (قومي).

فَمَنْ ذا الذي يُطِيق مثل هذا الخُلُقِ العظيم إلاَّ العظماء؟ ومَنْ الذي شحذ الهمة للسير على منوالهم، وفِعل ما فعلوه؟

عاشرًا: في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى ﴾ نجد ما يدل على سرعة التأثير والتأثر، والتغيير والتغيّر، بسبب هذا الخُلُق الكريم، وهذا واضح في (الفاء) ﴿ فَإِذَا ﴾، أما الفاء فهي للتفريع من جهة، والتعقيب من جهة أخرى، فاتضح من ذلك أن هذا الأثر العظيم قد تفرع وتسبب عن الخلق العظيم السابق، وأنه قد حصل عقِبَه مباشرة، وهذا ما تؤيده ﴿ فَإِذَا ﴾ الدالة على سرعة ظهور ذلك الدفع المذكور، لأنها تدل على المفاجأة، وذكر هذا الأثر، وعلى هذا الوجه من السرعة، عقب الأمر بفعل أمر شاقٍ على النفس وهو الدفع بالتي هي أحسن؛ لتسهيل التخلق بهذا الخلق النبيل، فهذا فوق ما ذكرناه سابقًا من التهيئة بذكر الفرق العظيم بين الحسنة والسيئة، وتوجيه الأمر بهذا الخلق الشاق لشخصه ﷺ وذاته، حتى يتبعه الناس في ذلك، لأنه القدوة، فوق ذلك كله هو سبب لحصول الصداقة والولاية، وهذا أمر تميل إليه النفوس وتحبه، فيكون عاقبة هذا العمل، وبهذه السرعة؛ حافزًا للصبر على قصر النفس عليه، وهذا أيضًا ملمحٌ مهم في قضية غرس القيم، وإقناع الناس بجدواها.

الحادي عشر: في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ ﴾ تعريف بالموصول للعدو،

وفي هذا العدول عن ذكر كلمة العدو، حيث لم يكن: فإذا العدو وليٌّ حميم، إلى الموصول كما في النظم الكريم ﴿ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ﴾ لإجراء أوصاف كاشفة لهذا العدو، ومن ذلك (بينك وبينه عداوة)، فهذه الجملة ليست في تصوير حجم العداوة مثل كلمة (العدو) المجردة، وأيضًا ذكر الموصول فيه ملمحٌ آخر؛ وهو أن يتحقق ورود كلمة عداوة منكَّرة بعده لتشمل كل صور العداوة المتوقعة، وهذا التركيب من أعلى صور البلاغة، لأنه يجمع أحوال العداوات، ويُبين أن الإحسان ناجح في اقتلاع العداوة من المحسَن إليه للمُحسِن إذا تناسب حجم الإحسان مع حجم تلك العداوة.

الثاني عشر: في ذكر الظرف وتكرره في قوله جلت قدرته: ﴿بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ﴾ ما يُشعر بحجم الهوَّة بين الاثنين التي لا يتوقع ردمها غالبًا، إلا أن هذا السلوك الرفيع كفيلٌ بذلك، وذلك أنك لو تأملت لوجدتَ أن الفارق والفاصل بين هذين المتخاصمين هو كلمة عداوة ﴿بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ﴾، فالعادة في مثلِ هذه الحالة ألا يحصل توافق البتة، وفي الارتقاء بتصوير العداوة إلى هذا الحد إقناعٌ بأثر الخلق في المسيء مهما بلغت إساءته.

الثالث عشر: في تنكير كلمة ﴿عَدَٰوَةٌ﴾ دلالة على شمول هذا الحل العجيب لكل صور العداوات وأنواعها، مهما اختلفت مستوياتها، ضعفًا وقوة، وَمَنْ جرَّب ذلك عرف، لذلك كان في هذا التنكير دليلًا على عدم الاعتذار بشدة العداوة أو نوعيتها، فكل ذلك مشمول بدلالة النكرة.

الرابع عشر: في التشبيه في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ دلالة على نوع التغير الذي حصل، وقوة الأثر لذلك الخُلُق العظيم، فإنه لم يؤثر في تحجيم العداوة أو حجبها فحسب، بل أحلَّ محلها صداقة، وقلبها إلى حميمية وولاية، كما تشير إلى ذلك أداة التشبيه ﴿كَأَنَّهُۥ﴾ المشعرة بشدة الشبه بين مَنْ كان عدوًا؛ وأصبح الآن وليًا حميًا، والتشبيه أقدر

الأساليب لنقل صورة مقنعة للمتلقي لهذا التوجيه الشاق على النفس، فالإنسان يعرف معنى الولي الحميم، ويشعر براحته معه، ونفعه له، فكان في تشبيه مَنْ كان عدوًا به حَفْزٌ عظيم لسلوك هذا السبيل العظيم الموصل إلى تلك النتيجة المرغوبة عند الناس، ويزيد ذلك تحفيزًا ذكر هاتين الصفتين (الولاية) و(الحميمية)، اللتين تصوران عِظَمَ التحول في شخصٍ ذلك الإنسان، حيث جمع بين النصرة والصداقة، وبين النفع والمحبة، وهما ما كان يفقدهما تمامًا لَّما كان عدوًا، بل كان يبارز بضدهما، وقد يكون المراد هنا مِنْ ذكر هاتين الصفتين شمولَ ذلك لمن كان عدوًا من الأقرباء والأرحام، أو مَنْ كان عدوًا بعيدًا منهم، فهو إما أن يكون من الأقربين، وإما أن يكون من الأبعدين، وفي ذلك بيان لتأثير هذا الخلق العظيم في كل مَنْ كان عدوًا، سواءً كان من القرابة أو كان بعيدًا عن الإنسان. فهل فَكَّر أحدنا -أيها الكرام- في مثل هذا الخُلُق العظيم وتأثيره على سلوك الناس؟ وهل يمكن لنا أن نفكِّر مجددًا بأننا نستطيع رأب الصدع بين الناس، وإعادة العلاقات إلى مجاريها من قبل أنفسنا -نحن- بالتخلق بهذا الخلق الرفيع مع من أساء إلينا؟

أترك الإجابة لذهنك وفكرك أيها المؤمن بربه!

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

شرر نار جهنم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فهذه وقفات تدبرية مع آية قرآنية حول مشهد من مشاهد يوم القيامة وتحديدًا فيما يخص الشرر المتطاير من نار جهنم، أعاذنا الله وإياكم منها، وذلك من خلال التأمل في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾(المرسلات: ٣٢، ٣٣)جمعت هذه الكلمات ما يروع القلوب، ويخيف الأفئدة من خلال وصف شرر نار جهنم على النحو التالي:

أولًا: الضمير في قوله تعالى (إنها) عائد إلى النار المدلول عليها بقوله تعالى قبل هذه الآيـة: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾(المرسلات ٢٩ – ٣١)، نلحظ هنا كيف سبق ذكر الظل المشعر بمعنى مضاد للنار، لكنه وُصِفَ بأنه غير ظليلٍ، وغير مغنٍ من اللهب، وفي هذا إبطال لخاصية الظل؛ فتلهفت النفوس لمعرفة ما الذي سيقبلون عليه، أو ما الذي غيَّر حالة الظل إلى الصورة الموصوفة: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾؟! كما يقال لمن يساق للقتل: (إنه السيف)! وفي هذا من زيادة الترويع والتهويل ما لا يخفى، إضافة إلى ما في من التعليل الكافي للغرابة في تحول الظل عن حالته المعهودة إلى ما ذكر في الآية.

ثانيًا: نجد هذا الخبر المفزع قد بدئ بـ (إن) وذلك لتأكيده، والاهتمام بمضمونه، خصوصًا أنه وقع بعد ذكر ما يأملون نفعه وهو الظل، فكان نقل المتلقي إلى معنى مضادٍ فوق ما فيه من الدهشة الصادمة له، يحتاج إلى تأكيد وتثبيت كما جاء في النظم الكريم.

ثالثًا: قوله تعالى: (ترمي)، نجد فيها ذكرًا لمادة (الرمي) المصورة لشدة استعار النار، فإنه من المعلوم أنه كلما زاد لهيب النار واشتعالها، تطاير شررها، كما أن مادة الرمي ذاتها توحي بالشدة والهول لما يلمح فيها من خاصية القَصْد.

رابعًا: في مجيء الفعل (ترمي) بالمضارع دليل على تجدد هذا الرمي واستمراريتهُ، كما يصور هذا الفعلُ الحركة الدائمة التي ترسم ذلك المشهد المخيف المهيب للهب تلك النار، فهي لا تتوقف عن ذلك الرمي.

خامسًا: قوله تعالى (بشرر) فيه بيان لنوع الرمي، والملحوظ هو تعدية فعل (ترمي) بالباء، مع أنه يتعدى دونها فيقال: «ترمي شررًا»، ولكن في ذكر الباء إشعار بمصاحبة الشرر للرمي، حتى لكأنه هو أداة الرمي، وذلك كقولك رميت بالقوس، فهو الأداة بخلاف قولك رميت القوس، وهذا يؤيد ملمح القصد في الرمي، وهذا ما يزيد الأمر هولًا وتخويفًا.

سادسًا: في ذكر (الشرر) خصوصًا هنا مع أنه أدنى أجزاء النار تهويل لشأنها، فالشرر هو الأجزاء الدقيقة التي تتطاير من النار عند التهابها، فإذا كان بالأوصاف المذكورة فكيف يكون إذًا عظم وهول تلك النار التي هذا شررها.

سابعًا: في التشبيه الوارد في قوله تعالى: (كالقصر)، بيان لحجم ذلك الشرر، وهنا تباين عجيب، فالشرر لفظ يوحي بالتناهي في الصغر؛ والقصر لفظ موحٍ بالتناهي في الضخامة والكبر، فكيف شُبه هذا بهذا ؟

عند التأمل نجد الأداة الواردة في التشبيه هي (الكاف) وهي تشعر بالتشابه من بعض الوجوه، وهذا حق، وهو يتناسب مع التباين المذكور بين الطرفين، وحتى تُنقل الصورة كاملة لذلك الشرر المعهود فيه الصغر، جاء التشبيه المتعدد لنقل كل أجزاء الصورة من حيث تعاظم حجم الشرر إلى الحد المذكور.

ثامنًا: في التشبيه بالقصر مراعاة لجانب الضخامة والحجم، وذلك أن القصر لفظ يدل على البناء العظيم، أو هو الغليظ من الحطب أو هو أعناق الإبل، ولكن السياق يشير إلى إرادة تعظيم حجم الشرر المعروف في أصله بالصغر، وهذا يتناسب مع دلالة القصر على البناء العظيم، مع تباين عظم في شأن القصر الدال ذكره على الراحة والنعيم مع الشرر الموحي ذكره بالنار والعذاب.

تاسعًا: في التشبيه الثاني لاستكمال الصورة قال (كأنه جمالة صفر) وهنا جاءت الأداة (كأن) لبيان شدة الشبه بين المشبه والمشبه به، وذلك لأن المراد هنا هو اللون بعد بيان الحجم سابقًا؛ لأن الجمالة هي الإبل، وهي مما يعرفه أهل الوبر (البادية)، وبهذا تكون الصورة قد اكتملت في الحجم، واللون، والحركة، والحجم بالتشبيه بالقصر، واللون بالجمالة الصفر، والحركة بما توحي به كلمة (ترمي).

عاشرًا: في تقييد الجمالة باللون (صفر) تحديد لوجه التشبيه وهو اللون، وفي النص على اللون الأصفر للشرارة دليل على اشتعالها، لأنها في غالب أمرها تنطفئ فتكون سوداء رمادية، فذكر اللون يدل على اشتعالها، وهذا أبلغ في التهويل والتخويف، وقد يراد من ذكر الجمالة الحجم أيضًا، فيكون في ذلك مخاطبة لأهل المدر بالقصر، ولأهل الوبر بالجمالة، هذا في شأن الحجم، وأما اللون فمدلول عليه باللون (صُفر).

وقد يكون في ذكر الجمالة، وفي قراءة جمالات، ما يشعر بالتفرق والكثرة والحركة أيضًا، وفي ذكر القصر وما يوحي عظم الحجم فيه من دلالة الثقل مما يزيد الأمر تهويلًا وإخافة؛ لما جمعه هذا الشرر من أوصاف الضخامة والثقل، والانتشار، والاشتعال، والكثرة، نسأل الله الرحمة والعافية.. والسلام.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفهرس

المجلس	العنوان	ص	المجلس	العنوان	ص
المقدمة	مقدمة المؤلف	٥	المجلس السادس عشر	من مجالس النساء	٧٥
المجلس الأول	تيسير الصوم	٧	المجلس السابع عشر	الحياة الطيبة	٨١
المجلس الثاني	تكامل الزوجين	١١	المجلس الثامن عشر	الهمة في طلب العلم	٨٩
المجلس الثالث	الإنفـــاق	١٥	المجلس التاسع عشر	صفات المربي ١ ـ ٢	٩٣
المجلس الرابع	المحـــاجّة	٢١	المجلس العشرون	صفات المربي ٢ ـ ٢	٩٧
المجلس الخامس	ولتكن منكم أمة	٢٧	المجلس الحادي والعشرون	أدب التعلم	١٠١
المجلس السادس	يدعون إلى الخير	٣١	المجلس الثاني والعشرون	رحمة الأنبياء	١٠٥
المجلس السابع	كنتم خير أمة	٣٥	المجلس الثالث والعشرون	أدب الإعذار	١٠٩
المجلس الثامن	الضمان الإلهي من العذاب	٣٩	المجلس الرابع والعشرون	نفع الآخرين	١١٥
المجلس التاسع	اثاقلتم إلى الأرض	٤٣	المجلس الخامس والعشرون	صلاح الأبوين	١٢١
المجلس العاشر	أرضيتم بالحياة الدنيا	٤٩	المجلس السادس والعشرون	التأمل	١٢٥
المجلس الحادي عشر	نصر الله	٥٥	المجلس السابع والعشرون	تلقي الإشاعات	١٢٩
المجلس الثاني عشر	إن الله معنا	٥٩	المجلس الثامن والعشرون	ادفع بالتي هي أحسن	١٣١
المجلس الثالث عشر	معاذ الله	٦٣	المجلس التاسع والعشرون	كأنه ولي حميم	١٣٧
المجلس الرابع عشر	جرأة في الباطل	٦٧	المجلس الثلاثون	شرر نار جهنم	١٤١
المجلس الخامس عشر	رد الباطل	٧١	الفهرس	فهرس المحتويات	١٤٤